استراتيجية
ابن باديس في تدبر القرآن

وأثرها في نهضة الأمة

الأستاذ الدكتور

محمد زرمان

جامعة باتنة ـ الجزائر

مقدمة

شكّل القرآن الكريم الركيزة الأساسية التي استند إليها الشيخ عبد الحميد بن باديس في مشروعه النهضوي الذي كان يهدف من ورائه إلى إحياء أمة أشرفت على الاندثار تحت ضربات المستعمر الفرنسي الذي استهدف دينها ولغتها وتاريخها بالمسخ والمحو والتشويه. وقد بدا واضحا منذ الوهلة الأولى أن حركة النهضة والإصلاح التي قادها تعتمد اعتمادا كليا على القرآن الكريم من خلال تدبّره واستنطاق آياته للوقوف على أسباب الأزمة الحضارية الخانقة التي تعصف بالمجتمع الجزائري وتكاد تمحو أثره من الوجود، واستلهام الحلول الكفيلة بحلها وبث الروح من جديد في كيان يحتضر.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الكبير اختار ابن باديس إستراتيجية متميزة في فهم القرآن وتدبره بطريقة تدريجية امتدت قرابة ثلاثة عقود (من ١٩١٣ إلى ١٩٣٩) ختم خلالها تفسير القرآن تدريسا عن طريق سلسلة متواصلة من الدروس اليومية، حاول أن يقف. أثناءها. وقوفا متأنيا أمام النصوص القرآنية وأن يغوص في أعماقها لاستخراج معانيها البعيدة ومقاصدها الكبرى، ومن ثَمَّ يربط الإنسان الجزائري ربطا عمليا بها حتى يكون القرآن هو المحرّك الذي يبعث فيه تيار النهضة ويوقظ في داخله إرادة التغيير.

وقد كان يؤمن من خلال انتهاج هذه الإستراتيجية إيمانا صادقا أن بناء الرجال. في هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة. أولى من تأليف الكتب، إذ كان بإمكانه أن يفسر القرآن الكريم في عشرات المجلدات في فترة زمنية قصيرة كما فعل غيره من المفسرين نظرا لما حباه الله به من العلم الواسع والذكاء الحاد والنظر الثاقب، ولكنه آثر إعادة الفعالية الحضارية للإنسان الجزائري باعتباره مفتاح التغيير وأساس البناء الحضاري، وقد تطلبت منه هذه المهمة النبيلة أن يفني عمره كله في القيام بها.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن ابن باديس قد ربط ربطا محكما بين استراتيجيته في تدبر القرآن وفهمه وبين الأبعاد العملية التطبيقية التي تشحذ فعالية الإنسان. فلم يكن همه محصورا في رصد الأقوال واستعراض الآراء وتفصيل المناهج وطرح قضايا الاختلاف والاهتمام الزائد بعلوم الوسائل والعناية بالفروع على حساب الأصول كما هو حال أغلب المفسرين، بل إنه انتقد انتقادا لاذعا جميع المناهج التربوية والتعليمية التي كانت تنتهجها المعاهد والجوامع الإسلامية في وقته وعاب عليها جفافها وابتعادها عن مصدر الهداية الأساسي، وإنما كان يرمي إلى تحويل التوجيهات القرآنية إلى سلوكيات عملية تصنع واقعا جديدا، وهذا ما جعل استراتيجيته في فهم القرآن وتدبره إستراتيجية فريدة على مستوى العالم الإسلامي.

وقد شهد له بهذا التميّز والتفرد كوكبة من العلماء والمصلحين الذين أكبروا جهوده في بعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر، وتقويض أركان المشروع الصليبي الاستعماري من خلال دروسه القرآنية التي أينعت وآتت أكلها طيبا في جيل الثورة التحريرية الكبرى التي طهرت البلاد من أرجاس المحتل، ونكتفي هنا بشهادة رفيقه في الإصلاح العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي قال عنه : "كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس – رحمه الله – ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خُصَّ بها، يرفده. بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة. بيان ناصع

واطلاع واسع...وله في القرآن رأي بَنَى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدايته، والاستقامة على طريقته".

وتهدف هذه الورقة إلى تتبع المحطات البارزة والمهمة في حياة ابن باديس وتجربته الإصلاحية، وبيان مركزية القرآن في مشروعه النهضوي، واستجلاء المفهوم والأهمية والأبعاد والدلالات التي يكتسيها تدبر القرآن الكريم وفهمه عنده، ورصد المعالم الكبرى لاستراتيجيته في التدبر من خلال مجموعة من القواعد والأبجديات التي يعتمد عليها منهجه، والوقوف على دور تدبر القرآن في بناء المشروع النهضوي الباديسي، والانتهاء بتقييم هذه الإستراتيجية ومحاولة الاستهداء بها اليوم للخروج بالأمة من حالة المغلوبية الحضارية التي تتخبط فيها.

أولا : ابن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر :

عبد الحميد بن باديس (١٨٨٩- ١٩٤٠م) علم بارز من أعلام الجزائر في العصر الحديث ، بل إنه الغرة اللامعة في جبين نهضتها والفارس الذي قاد جحافلها نحو النصر المبين . ولد ابن باديس في فترة حرجة جدا من تاريخ الجزائر المعاصر، فقد جاء إلى الدنيا بعد مرور قرابة سبعين سنة على وقوع بلاده في براثن الاستعمار الفرنسي الذي عاث فيها فسادا ، وأهلك الحرث والنسل، وقمع الثورات العديدة التي قاومته قمعا دمويا وحشيا تقشعر منه الأبدان ويندى له جبين الإنسانية خجلا ، وسلط على الفرد الجزائري قوانينه الجائرة وهي القوانين الرهيبة التي كانت تُعْرف بقوانين الأندجينا(١) التي قتلت فيه كل معاني الآدمية ومشاعر الكرامة، وجردته من أملاكه فسحقه الفقر، وجفف منابع ثقافته العربية الإسلامية فغرق في دياجير الجهل وأصبح تعلّم العربية جريمة تصل إلى حد الخيانة العظمى ، حيث أصدر أحد وزراء الداخلية الفرنسية عام ١٩٣٧ م بيانا يمنع فيه منعا باتا تعليم اللغة العربية ويعتبرها لغة أجنبية ويعدّ تعليمها ونشرها بين أبناء الجزائر: " محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية"(٢)، وأضحى المجتمع الجزائري . وهو على مشارف القرن العشرين . محطما مسلوبا لا يملك من أمره شيئا، ولا يدري ما يدور حوله من أحداث الحياة كما وصفه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي : " غثاء من الأناسي كغثاء السيل المتساوي الغيبة والمشهد في تقدير حياته، لا يحكم ما يريد ولا يفقه ما يراد به، قد محت الأحداث من مخيّلته معنى الماضي فهو يعيش بلا ماضي، ومعنى المستقبل فهو لا يفكر في مستقبل"(٣) .

في هذه الظروف العصيبة فتح ابن باديس عينيه على الحياة، وعندما بلغ رشده أَلِف هذا الواقع المرير الذي طبعه الاستعمار الفرنسي بطابع الظلم والقهر والذل وصبغه بصبغة الجهل والفقر والاستعباد والاستغلال يحيط به من كل جانب، وهو يصفه بقوله : " كانت الجزائر في تلك الأوقات تعاني أزمة من أغرب وأفتك الأزمات، فالحقوق معدومة، والمظالم مرهقة، والضرائب فادحة، والأحكام الزجرية قاسية رهيبة، ولا يكاد يجتمع ثلاثة من المسلمين حتى يكون البوليس

---

[١] – راجع : كتاب الجزائر . أحمد توفيق المدني . دار الكتاب الجزائري . ط٢ . ١٩٦٣ . ص ٣٠٤ . و: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر . رابح تركي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ٣ . ١٩٨١ . ص ٥٠ إلى ٥٣

٢ – الجزائر الثائرة . كوليت وفرانسيس جانسون . ترجمة : محمد علوي الشريف وآخرون . دار الهلال . القاهرة . ١٩٥٧ . ص ١٣٠

[٣] – آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ١ . ١٩٧٨ م . ص ١٦٥

رابعهم. وقد انحطت الأخلاق تجاه هذه النكبات، وألَفَت النفوس الخنوع والانزواء، ومن تكلّم أو تحرّك عُدَّ ثائرا مقاوما للسلطة "(١). وعلى الرغم من نشأته في عائلة أرستقراطية تتمتع بالجاه العريض، والثروة الوفيرة، والمكانة الاجتماعية الراقية إلا أن جرح شعبه الذي يرسف في أغلال الأسر، ويتجرّع كؤوس المهانة، ويترصّده شبح المحو والمسخ الحضاري حفر عميقا في قلبه، وأقضّ مضجعه وهو لا يزال شابا يافعا يعد العدّة لمواجهة الحياة .

وهذا ما حدا به – بعد أن أنهى رحلته العلمية – أن يخيّر نفسه بين حياة الدعة والراحة، وحياة الجهاد والمواجهة والمشقة والمعاناة ، فاختار عن قناعة تامة أن يقف في صفّ شعبه، ونذر نفسه أن يخدمه حتى آخر نَفَس فيه، يقول مصوّرا هذا الموقف: " أذكر أني لما زرتُ المدينة المنورة (عام ١٩١٣م) واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان لونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حسين أحمد الهندي أشار عَلَيَّ الأول بالهجرة إلى المدينة المنورة وقطع كل علاقة لي بالوطن، وأشار عَلَيَّ الثاني . وكان عالما حكيما . بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد. فحقّق الله رأي الشيخ الثاني، ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن"[٢]. وبذلك ودّع الحياة الهادئة والعيش الرغيد، وبدأ حياة حافلة بجلائل الأعمال وعظائم المهمات، وتسامت نفسه إلى آفاق الهدف الذي يسعى إليه فبذل من الجهود، وتحمّل من الصعاب، وواجه من العوائق والتحديات ما تنوء بحمله الجبال .

أخضع ابن باديس . بنظرته الثاقبة وذكائه الحاد واستئناسه بمشورة أساتذته ورفاقه المقربين . الواقع الجزائري للتمحيص والتحليل، ووضع يده على الداء، واستفرغ الجهد في العثور على الدواء، حتى ترجّح لديه أن أنجع دواء لهذا الواقع المريض المتردّي هو المرابطة على الجبهة الثقافية ، وإحياء النفوس بالعلم ، وبعث المعاني الإنسانية التي ضمرت فيها من طول القهر والإذلال، وتبصير جموع الشعب بقيمتها الحقيقية، وبثّ الأمل في الأرواح التي قتلها اليأس فاستنامت لواقعها البائس ولسان حالها يقول "نأكل القوت وننتظر الموت" .

من هنا بدأت الرحلة المباركة لابن باديس في وضع حجر الأساس للنهضة الجزائرية الحديثة التي قلبت الموازين، وغيّرت الأوضاع، وبعثت المارد الجزائري من تحت الرماد، وخلطت أوراق الاستعمار، وجعلت كل الجهود التي بذلها طيلة قرن من الاحتلال هباءً منثورا: " ذلك أن قدرة التعليم على غرس القيم وقلب الأوضاع السلوكية على مستوى الفرد والمجتمع ، وقلب الأوضاع السياسية والاقتصادية أمرا لا ينكره أحد ، ولذلك كان اتجاه ابن باديس إلى تعليم الناس هو الصواب بعينه، ولو اختار منفذاً آخر لأضاع الفرصة وضيّعَ جهده دون حصاد نافع"[٣].

استهل ابن باديس عمله الجبار في هدوء وسكون، حيث جمع حوله رواد المساجد من رجال ونساء وأطفال، وخصّص لكل فئة دروسا تناسبها في تعليم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن والفقه والتفسير والسيرة والوعظ والإرشاد، وكان ذلك يستغرق منه بياض نهاره وجزءًا من سواد ليله؛ ليتمكن من إكمال الدروس اليومية العشرة التي ألزم نفسه بها والتي

---

[١] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . دار البعث . قسنطينة . الجزائر. ط ١ . ١٤٠٥ هـ. ١٩٨٤ م .ج ٣ . ص ١٠٣

[٢] – الشهاب . ج ٨ . مج ١٣ . ص ٣٥٥ . عدد أكتوبر ١٩٣٧

[٣] – تجربة في الإصلاح . صلاح الدين الجورشي . تونس . ط ١ . ص ٣٠

يبدؤها من بعد صلاة الفجر إلى منتصف الليل(١)، يحرّر العقول من الخرافات والبدع والأضاليل ، وينوّرها بعقائد الإسلام وآدابه وأخلاقه وفضائله.

وظل يتابع تلامذته الكبار والصغار بالتعليم والتوجيه والتهذيب، وينتدب من يرى فيه ذكاءً ونبوغا وقدرة على العمل ليعينه في مهمته في مساجد أخرى، أو يبتعثه إلى مكان إقامته لينشئ بدوره حلقات لدروس مماثلة(٢)، وشدّ أزره خلال هذه المرحلة ثلة من أبناء الجزائر الذين تخرجوا من معاهد الحجاز والقاهرة وتونس ووجدوا هذه الحركة العلمية المباركة تسير ببطء وثقة فاتصلوا بصاحبها ووضعوا أيديهم في يده وحذوا حذوه في نشر العلم وإرشاد الناس في مدنهم وقراهم. وظلّ على هذه الحال قرابة عشرين سنة يبث العلم متطوعا بثًّا رفيقا هادفا في أوساط الطبقات الشعبية التي هرعت إليه كما يهرع الظمآن إلى نبع الماء، فتفتّحت العقول، وتنوّرت الأذهان، وسَرَت بين الناس روح جديدة لم يعهدوها من قبل، وبدأت شخصية الفرد الجزائري المحطّمة المسحوقة تحت أثقال الذل والاستعباد تلملم أشلاءها الممزقة وتنظر إلى الغد بتفاؤل واستبشار.

ثم جاءت المرحلة الثانية من العمل الحضاري الكبير الذي أنجزه عبد الحميد بن باديس، والتي تتمثل في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة ١٩٣١م، وهو التاريخ الذي تزامن مع الاحتفالات الصاخبة والاستفزازية التي نظمتها حكومة الاحتلال الفرنسي للاحتفال بمرور مائة سنة على غزو الجزائر، والإعلان عن نجاحها في القضاء على الإسلام فيها، حيث صرّح أحد الساسة الفرنسيين بذلك قائلا: " لا تظنوا أن هذه الاحتفالات من بلوغنا مئة سنة في هذا البلد، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار"(٣).

فكان ظهور الجمعية رد فعل عملي على هذه الاستفزازات، وإعلانا مضادا للتصريحات الاستعمارية يؤكد أن الشعب الذي سحقته الآلة العسكرية الفرنسية وكتمت أنفاسه طوال هذه الفترة لا يزال يتنفس الإسلام ويحيا به. وكان ظهورها . من جهة أخرى . فرصة عظيمة لابن باديس ليطبق برنامجه الإصلاحي في إطار قانوني يستفيد فيه من جميع الطاقات الخلاَّقة التي أفرزتها المرحلة الأولى من التكوين العلمي الذي أشرف عليه بنفسه، فنشطت . في هذه المرحلة . حركة تأسيس المدارس النظامية العربية الحرة، والمساجد المستقلة عن إدارة الاحتلال الفرنسي، والنوادي والجمعيات الخيرية، وإصدار الصحف التي ترعى الأقلام الناشئة من الأدباء والشعراء والخطباء والمؤرخين ، وأصبح المجتمع الجزائري يموج بالنشاط والحيوية كخلية النحل .

وعلى الرغم من أن الاستعمار الفرنسي قد أربكته هذه الموجة من اليقظة وفاجأته بعمقها واتساعها إلا أنه لم يأْلُ جهدا في محاربتها بكل ما أتيح له من الوسائل، لكن الوقت كان قد فات، والنهضة كانت قد حفرت عميقا في

---

[١] – راجع : الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية . محمود قاسم . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٨ . ص ١٧

[٢] – راجع : مذكرات . محمد خير الدين . مطبعة دحلب . الجزائر . ١٩٨٥ م . ج ١ . ص ١٠٣

[٣] – محمد البشير الإبراهيمي . "أنا" . مجلة الثقافة . مايو . يونيو ١٩٨٥ . ع ٨٧ . الجزائر . ص ٢٧

الأرض الجزائرية : "بدأ ابن باديس الإصلاح سهلا هيّنا، وانتهى به صارما ممتنعا على نحو لم يفطن له المستعمر أول الأمر، ولم يستطع القضاء عليه بعد أن تمّ بالفعل. لقد أراد أن يحاصر الجزائر بمحو شخصيتها العربية الإسلامية، فحاصره ابن باديس بالجزائر العربية المسلمة التي يمكن القول بأنها نجت بمعجزة"(١).

ووقف ابن باديس في وجه هذه المؤامرات كالطود الشامخ يدافع عن إنجازات الشعب وحقه في الحياة الكريمة في ظل شخصيته الإسلامية ومقوماته الحضارية ، ومن ورائه إخوانه من العلماء ورفاقه في البناء، وكانت له مع الإدارة الاستعمارية مواقف خالدة سجلها له التاريخ، منها رفضه لقرار فرنسي بغلق مدرسة عربية وتحويلها لتعليم الفرنسية بحجة عدم حصول أصحابها على رخصة قانونية لمزاولة التعليم بها وقال لمن جاء ينفذ الأمر: " لا يمكن أن تحلّ الفرنسية وتُطرد العربية من مدرسة أسّسها الشعب بأمواله لتعليم العربية، ولن تخرج العربية من هذه المدرسة حتى تخرج روحي من جسدي"(٢) ، ومنها ردّه القويّ على تحرّش الصحافة الفرنسية عام ١٩٣٧ بجمعية العلماء بعد أن قدمت جملة من المطالب لتحسين أوضاع الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية والدينية، وتنبيهه غلاة المعمّرين إلى أن الزمن الذي كان فيه الشعب الجزائري مطأطئ الرأس ذليلا خائفا قد ولّى إلى الأبد ببركة النهضة القرآنية التي سرت بين أفراده : " لم يسؤني ما علّقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش ؛ لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق فيمن لم يتعوّدوا سماعه من المسلمين الجزائريين أمثالكم. ولا ألومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصا لأمتكم ووطنكم ، كما كنت أنا مخلصا في منشوري لأمتي ووطني. وإنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغارا من تلاميذنا، فمن باب أحرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير في كبارنا في السير على خطتنا إلى غايتنا"(٣) .

ولم يهدر ابن باديس خلال هذه المرحلة دقيقة من وقته، بل استغل كل لحظة لإنجاز عمل وكأنه يسابق الزمن ، فكان كثير الحركة جَمَّ النشاط، لا يتأخر أبدا عن دروسه، ويكتب افتتاحيات مجلة الشهاب ويسافر إلى مختلف المدن والقرى الجزائرية بالليل حتى لا يضيع منه النهار ليتفقد أحوال الجمعية فيها، أو ليؤسس مدرسة جديدة أو مسجدا أو ناديا أو ليصلح بين المتنازعين أو ليلقي محاضرة في حفل أو درسا بمناسبة دينية(٤)، وكان له في كل شبر من أرض الجزائر أثر، وكان يقول : " أنا رجل مسلم ورجل وطني، كل حواسي وكل عقلي لخدمة وطني، نعم أخدمه وأدرجه حتى لا يكون هناك اندحار ولا انهيار"(٥). وظل متوهجا كالشعلة إلى أن لقي ربه وهو في أوج نشاطه وقمة عطائه، وكان من أجلّ أعماله قبل وفاته بقليل ختمه لتفسير القرآن الكريم تدريسا ، ومن أروع مواقفه في أخريات أيامه توقيفه لمجلة "الشهاب" عن الصدور وكانت من أحبّ أعماله إليه، حتّى لا يضطرّ تحت الضغط الاستعماري وظروف الحرب العالمية الثانية أن

---

[١] – الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية . محمود قاسم. ص ٤٩

[٢] – من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية . أحمد طالب الإبراهيمي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ١ . ص ٧٧

[٣] – الشهاب . ج ٨ . مج ١٣ . ص ٣٨٣

[٤] – ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر. أحمد حماني. "تفسير ابن باديس ومناهجه في التأويل" . كتاب الأصالة. دار البعث . قسنطينة. الجزائر . ١٩٨٣م. ج ١ . ص ٢٥٢

[٥] – الشهاب . ج ٨ . مج ١٢ . ص ٣٦٠

ينشر فيها ما لا يرضاه لها ممّا تفرضه إدارة الاحتلال عليه إخلاصا لمبدئه الذي عبّر عنه بمقولته الشهيرة: " لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها"[١].

رحل ابن باديس عن هذه الدنيا بعد أن أحيا شعبا كان يشرف على الهلاك، وانتشل أمة من موت محقق كان يتربص بها، وأعاد للناس الأمل في الحياة بعد أن حوّلهم الطغيان الاستعماري إلى قطيع من المخلوقات التي لا تصلح إلا لخدمة الأسياد، وهو الذي وضع حجر الأساس المتين للنهضة المباركة التي طوت أبناء الشعب الجزائري تحت لوائها ثم أهّلته فيما بعد ليخوض حربا طويلة ومريرة وقاسية ويفْتكَّ حريته التي رهنها الاحتلال الفرنسي لمدة قرن ونصف قرن من الزمان، ويطهّر أرضه من أرجاسه . لقد ابتعثه القدر: " ليؤلف من الشعب ما عجزت عنه الأيدي المهزوزة، ويفجّر فيه ما قصرت عنه العقول المتحجرة"[٢].

ثانيا : مركزية القرآن في المشروع النهضوي عند ابن باديس :

بدأت علاقة ابن باديس بالقرآن الكريم في وقت مبكر جدا ، حينما كان صبيا ودفعه والده إلى أحد أكبر القراء آنذاك الشيخ محمد المداسي؛ ليحفظ على يديه القرآن فأبدع في حفظه وحسن ترتيله وختمه وهو في الثانية عشر من العمر، مما أثار إعجاب شيخه الذي قدمه لإمامة المصلين في الجامع الأكبر في صلاة التراويح لمدة ثلاث سنوات[٣] متتاليات وهو لا يزال في هذه السن المبكرة. ثم عمّق هذه العلاقة ووطّد أركانها مشايخه الذين اختارهم له والده بعناية فائقة لأنه كان يعلق عليه آمالا عريضة ، وكان يربأ به أن ينخرط في سلك التعليم النظامي الذي كانت تشرف عليه سلطات الاحتلال خوفا عليه من تبعاته وعواقبه الوخيمة، وبيّن له بوضوح ما ينتظر منه فقال له : " يا عبد الحميد أنا أكفيك أمر الدنيا ، أنفق عليك وأقوم بكل أمورك، ما طلبت شيئا إلا لبيت طلبك كلمح البصر فاكفني أمر الآخرة ، كن الولد الصالح العامل الذي ألقى به وجه الله "[٤] .

وقد لقي هذا الاهتمام والرعاية الخاصة نفسا شفافة لدى ابن باديس ، وروحا متطلعة إلى المعالي ، وذكاءً وقادا يستوعب أبعاد الواقع ويدرك إدراكا جيدا متطلباته ، فتكوّن لديه وعي عميق بأن مهمة نبيلة تنتظره فعكف على طلب العلم وشغف بالاستزادة منه ، وقيّض الله له شيوخا وأساتذة أجلاء في جامع الزيتونة بتونس فتحوا له صدورهم وبذلوا له العلم والنصح لما لمسوا فيه من مخايل النبوغ ، إذ كان يدخل معهم في نقاشات عميقة وواعية حول مختلف القضايا العلمية والأحداث المستجدّة فيجد لديهم ما يروي نفسه العطشى[٥] ، كما أسهموا بقسط وافر في بث روح النهضة وإرادة

---

[١] – ابن باديس وعروبة الجزائر . محمد الميلي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ٢ . ١٩٧٣ م . ص ٦٣

[٢] – صالح خرفي . " المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث" . مجلة الثقافة . ع ٢١ . ١٩٧٤ . ص ٣٦

[٣] – عبد الحميد بن باديس مفسرا . حسن عبد الرحمن سلوادي . المؤسسة الوطنية للكتاب . ١٩٨٤ . ص ٤٠

[٤] – حياة كفاح . أحمد توفيق المدني . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ١٩٧٧ م . ج ٢ . ص ٧٧

[٥] – أحمد توفيق المدني . "عبد الحميد بن باديس الرجل العظيم " . مجلة الأصالة . ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ. ١٩٧٧ م . س ٦ . ع ٤٤ . ص ٦٢

التغيير في نفسه تماشياً مع ما كان يشهده المشرق العربي من حركات إصلاحية[1] ، وساعدوه على التخلص من بقايا التقليد وتقديس الرجال وأقوالهم فانفتحت له أبواب الإبداع والنبوغ الواسعة ، وحلّق في سماء التفكير الحر الإيجابي الذي يساير حركة الحياة المتغيّرة على الدوام ، ونبّهه شيخه محمد النخلي[2] إلى القيمة الحضارية التي تكمن في القرآن الكريم فتغيّرت وجهة حياته واتضحت له أهدافه، فهذا الشيخ هو الذي بث في روعه أن القرآن كتاب حياة وكتاب نهضة وكتاب مدنية وعمران وكتاب هداية للسعادتين، يقول ابن باديس : " من يوم عرفت من الأستاذ أن القرآن صفاته تلك الصفات، أخذت أَقْرَؤُهُ وأدرسه باعتباره كتاباً لتلك صفاته، وأطلب ما فيه من مقتضيات هذه الصفات، وصارت كلمة طالب قرآن عندي لها معنى غير الذي كان لها "[3].

تفاعل هذا الزاد العلمي الغزير الذي انطوت عليه جوانح ابن باديس مع مؤهلاته النفسية وقدراته العقلية الفذة، واستعداداته المتميّزة، فاستطاع أن يرسم صورة متكاملة الجوانب للواقع الجزائري البائس، ثم عكف عليها يحللها ويستنطقها ليعثر في ثناياها على مفتاح الحل الذي يصل بالأمة إلى بر الأمان، ويجنّبها مغبّة الموت الحضاري الذي يتربص بها ، بخاصة وأن المشروع الصليبي الاستعماري كان قائما على قدم وساق يستعجل جني ثمرات قرن كامل من الجهود لاقتلاع الشعب من جذوره وتحويل الجزائر إلى مقاطعة فرنسية ، فوجد أن الدواء الشافي يكمن في العودة إلى القرآن الكريم ومدّ جسور التواصل معه وتقوية علاقة الإنسان الجزائري به لاستمداد النور الذي يضيئ درب السائرين لأن: "القرآن هو شفاء الاجتماع البشري كما هو شفاء للأفراد. فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظام التعامل وسياسة الناس ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني من جميع أمراضه وعلله"[4]، واعتماداً على ذلك فقد رسم ابن باديس استراتيجيته وقرر في حزم وقوة أنه لا تكون للبلاد نهضة إلا بالقرآن : " لا تكون لنا نهضة دينية إلا بالقرآن ... وإذا أردنا أن ننهض نهضة دينية بالقرآن فلنتفهّمه ولنتفقّه فيه ولنعمل به، قادرين قدره، عارفين مزيّته. وعلى أهل العلم والفضل تبعة القيام بهذا وفي حضراتهم الثقة والرجاء . فليعملوا ، فالله مع العاملين "[5].

وقد التقى في تفكيره هذا مع كبار المصلحين عبر التاريخ الإسلامي الطويل الذين ساروا على مقولة مالك بن أنس الذي قرر أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. يقول الإبراهيمي: "وابن باديس له رأي في القرآن بنى عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدايته، والاستقامة على

---

[1] – ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير . محمد بهي الدين سالم . دار الشروق . ط ١ . ١٤٢٠ هـ . ١٩٩٩ م . ص ٦٧

[2] – محمد بن محمد النخلي القيرواني (١٨٦٩ هـ . ١٩٢٤ م) عالم من علماء الزيتونة، واسع الاطلاع، دقيق البحث، كان من رواد الإصلاح الأوائل في تونس.

[3] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . دار البعث . قسنطينة . الجزائر . ط١ . ١٤٠٦ هـ. ١٩٨٥ م . ج ٤ . ص ٤٦

[4] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . جمع وترتيب : توفيق محمد شاهين ، ومحمد الصالح رمضان . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق . ط ٣ . ١٣٩٩ هـ. ١٩٧٩ م . ص ١٨٧

[5] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٤ . ص ٥٠

طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله"(١)، وهذا اعتمادا على السنن الإلهية التي تتحكم في الأنفس والمجتمعات والتي عبر عنها مالك بن نبي بقوله إن : "نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده ، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء لنفس القانون "(٢).

وحيث أن المجتمع الإسلامي الأول الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بناه على دعائم القرآن الكريم وأن المجتمع الجزائري يعدّ امتدادا له بحكم الإطار المرجعي الواحد الذي يتحكم في كلا الكيانين ، فقد رسخ لدى ابن باديس اعتقاد جازم أن القرآن هو سبيل النجاة : " لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقّه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه ، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم"(٣)؛ لأن القرآن الكريم جمع بين دفتيه جميع ما يحتاجه المسلمون في حياتهم، وهم ليسوا بحاجة إلى مصدر آخر ليرسم لهم سبيل الخروج من حالة التردي التي يعيشونها : " القرآن شامل لكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان، كل هذا فُصِّلَ في القرآن تفصيلاً على غاية البيان والإحكام"(٤).

وبذلك حدد ابن باديس بدقة معالم إستراتيجية مشروعه النهضوي، وارتكز بصفة رئيسية على القرآن الكريم ليكون المنطلق الذي يبدأ منه : "وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا وسيرة صالح سلفنا ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق ويبصرنا في العلم ويفهمنا في الدين ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة والسيادة العادلة في الدنيا ونيل السعادة الكبرى في الآخرة، وليس هذا عن العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز "(٥)، واستهل دروسه بتفسير القرآن وتدبّره بطريقة تحقق هذا الهدف الكبير، معرضا عن جميع ما اشتملت عليه التفاسير القديمة والحديثة التي اطلع عليها من الاختلافات اللغوية والكلامية والفقهية وغيرها، مركزا على أهمية التدبّر ليكون سبيلا إلى التطبيق العملي، فهو يرى أن علاقة المسلم بالقرآن يجب أن تُبْنَى على : "التفهم والتدبر لآياته ، والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالته ، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء في التفاسير المأثورة، وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم"(٦) للاستهداء بنوره والاسترشاد به في شؤون الحياة، لا للاستغراق في المباحث القديمة التي التي شغلت الناس لقرون عديدة عن الهدف الأسمى من وجوده بينهم.

لذلك كان في مجمل تفسيره متوجها مباشرة إلى المعاني الخلاّقة التي تُحرّك القلب والضمير، وتهز وجدان الإنسان وتخلق فيه الرغبة القوية في التغيير، وتدفعه إلى ترجمة هذه المعاني إلى فكرة ثم سلوك حيّ وطاقة فيّاضة تسعى في الأرض

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٥

[٢] – ميلاد مجتمع . مالك بن نبي .دار الفكر . دمشق . ص ٦٩

[٣] – تفسير ابن باديس من مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٨٥

[٤] – المصدر نفسه . ص ٦٤

[٥] – المصدر نفسه . ص ١٩٧

[٦] – تفسير ابن باديس من مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ص ٤٧٤

سعياً إيجابياً ينفض عنها غبار الجمود والركود، ويخرجها من دائرة السلبية الساكنة إلى دائرة الفعل والتأثير. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مشيداً بهذا الأسلوب المميّز في فهم القرآن : " لقد كان من حسن حظ الجزائر أن باعث النهضة العلمية فيها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قد وضع أساس هذه النهضة على قواعد صحيحة من أول يوم، فسلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصريّ الأسلوب والمرمى، مستمداً من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها"[١].

ولم يكن ذلك أمراً هيّناً في ظل الفصام الذي وقع بين المسلمين وكتاب ربهم فباعد بين القرآن والفعل الحضاري وأحاله إلى نص جنائزي لدى العامة : " وخلفت من بعدهم خلوف اتخذوه حرفة وتجارة، وجاؤوا بقراءته على الأموات بوجوه من البشاعة والمهانة والحقارة فأذلوا أنفسهم وأذلوا اسم حامل القرآن بقبيح أعمالهم فأذلّهم الله"[٢]، كما زرع متأخّرو الصوفية الرهبة في النفوس من محاولة فهمه والاقتراب منه مبالغة منهم في تقديسه، وإنما هم يحرمون أنفسهم من خيره. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ناعياً على الصوفية تخويف المسلمين من محاولة الاهتداء بالقرآن: "فهم الذين أبعدوهم عن القرآن، وأضلوهم عن سبيله، بما زينوا لهم من اتباع غير سبيله، وبما أوهموهم أنه عال على الأفهام، وما دَرَوْا بأن من لازم هذا المذهب كَفَرَ ، وهو أنّه إذا كان لا يُفْهَم فإنزاله عبث، وأنَّى يكون هذا ومُنَزِّلُهُ . تعالت أسماؤه . يصفه بأنه عربيٌّ مبين، وأنّه غير ذي عوج، وأنّه ميسّر للذكر، وينعته بأنه يهدي للتي هي أقوم، وكيف يهدي إذا كان لا يُفْهَم ؟ "[٣]، إضافة إلى الجهل والأميّة وطول زمن الاستعباد والقهر.

غير أن عزيمة ابن باديس كانت أقوى من كل التحديات، فلبث يخاطب العقول والقلوب، ويسلك إليها كل طريق، ويستنفذ الجهد في توصيل الحقائق القرآنية إليها كأصفى ما تكون، وفي توضيح المراد الإلهي من الإنسان، ويزيل التصورات الخاطئة، والأفكار المريضة، والاعتقادات السقيمة بهدوء وحكمة، ولين ورفق، ويقرّب الناس من كتاب ربهم شيئاً فشيئاً حتى يستأنسوا به ويحسوا بحلاوته في نفوسهم فيقبلوا عليه برغبة ملحّة، ويربطهم به ربطا تدريجيا حتى يصلوا إلى المرحلة التي يقتنعون فيها أن حياتهم كلها متصلة به، وأنهم مدفوعون دفعا إلى تحكيمه في جميع شؤونهم . وهو يعبّر عن صعوبة هذه المهمّة حينما يستعرض مواقف عديدة لمجددين مسلمين حاولوا إرجاع الناس إلى كتاب ربهم وسنة نبيّهم في قرون مضت لكن التحديات كانت أكبر منهم فيقول : " فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام، في تلك الديار، وقد مضت عليه القرون في هذه البلاد وغيرها، فإن قلعه عسير، والرجوع بالتعليم إلى التفقّه في الكتاب والسنة وربط الفروع

---

[١] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط ١ . ١٩٩٧ م . ج ١ . ص ٣٤٣

[٢] – ابن باديس حياته وآثاره . إعداد وتصنيف : عمار الطالبي .الشركة الجزائرية . الجزائر . ط ٣ .١٤١٧ هـ. ١٩٩٧ م . ج ٤ . ص ٢٧٩

[٣] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . ج ٤ . ص ٢٢٦

بالمأخذ والأدلة أعسر وأعسر"(١) ثم يستأنف قائلاً في حزم وعزم : " غير أن ذلك لا يمنعنا من السعي والعمل بصدق الرجاء وقوة الأمل ، وسننفّذه في دروسنا هذا العام والله المستعان"(٢).

ومما خفّف عليه وطأة المهمة الثقيلة، وزوّده بالأمل، وملأ قلبه بالصبر أن عزوف المجتمع الجزائري عن القرآن وهدايته لم يأت من إعراضه عنه، بل لا يزال يحتلّ في نفسه المكانة المقدسة التي لا تعلوها مكانة، وإنما جاء من تراكم الجهل وطغيان الاستعمار: " غير أن الذي يُبْقى لنا في المسلمين الرّجاء، ويُفْسح لنا المجال، ويبعثنا على العمل هو أن ما عليه أكثرنا ليس عن زهد في الإسلام ولا عن قلة محبّة فيه، وإنما هو جهل طال عليه الأمد، وغفلة توالت عليها الحقب"(٣)، بالإضافة إلى طيب معدن الإنسان الجزائري وحبّه للخير ، فهو يصف الأمة الجزائرية بأنها : "معْوانَة على الخير، منطوية على استعدادات الكمال، وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل"(٤) .

وسجل المفكر الجزائري مالك بن نبي أثر ابن باديس القويّ في تحريك الواقع الجزائري الجامد وتهيئته للنهوض اعتماداً على القرآن الكريم الذي كانت تدور حوله جميع دروسه وتوجيهاته بقوله : " لقد بدأت معجزة البعث تتدفّق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرّك، ويا لها من يقظة جميلة مباركة، يقظة شعب ما زالت مقلتاه مشحونتين بالنوم، فتحوّلت المناجاة إلى خطب ومحادثات ومناقشات وجدل. وهكذا استيقظ المعنى الجماعي، وتحوّلت مناجاة الفرد إلى حديث الشعب"(٥).

لقد شرع ابن باديس في تفسير القرآن الكريم ربيع سنة ١٣٣٢ هـ الموافق لعام ١٩١٤م ، وظل ملتزماً التزاماً عجيباً بدرس التفسير الذي يلقيه يومياً بين صلاتي المغرب والعشاء إلى أن انتهى منه في ربيع سنة ١٣٥٧ هـ الموافق لعام ١٩٣٨ . يقول الإبراهيمي : " أتمّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درساً على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة مفخرة لهذا القطر"(٦) . ولم يختم القرآن تفسيراً عن طريق التدريس في الجزائر أحد غيره منذ أن ختمه أبو عبد الله التلمساني(٧)في المائة الثامنة للهجرة. للهجرة.

---

[١] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٤ . ص ٨١

[٢] – المصدر نفسه ، ص ٨١

[٣] – عبد الحميد بن باديس . "أيها المسلمون احفظوا الإسلام على أبنائكم إن كنتم مسلمين" . جريدة الصراط . ع ٤ . س ١ . ١٩ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ. أكتوبر ١٩٣٣ م

[٤] – ابن باديس حياته وآثاره . إعداد وتصنيف : عمار الطالبي . مج ١ . ج ١ . ص ٧٩

[٥] – شروط النهضة. مالك بن نبي . ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط٣، دار الفكر، ١٩٦٩م، ص٣٠.

[٦] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . ج ١ . ص ٣١٨

[٧] – أبو عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي الحسني الشهير بالشريف التلمساني (٧١٠ . ٧٧١ هـ) كان مفسرا مشهودا له بالبراعة، محدّثا وإماما مجتهدا، من كبار علماء المالكية ، ملأ المغرب الإسلامي علوما ومعارف . ختم تفسير القرآن تدريسا في ربع قرن وأتى فيه بالعجب العجاب . (راجع ترجمته في : معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض . ص ١٨٧)

وبذلك يكون قد قضى ربع قرن كامل في تدبّر القرآن وخدمته قراءة وتلاوة وتفسيراً على الطريقة السلفية. وكان يغتنم كل فرصة سانحة في دروسه القرآنية لتحليل أمراض المجتمع الجزائري بصفة خاصة، وأمراض المجتمع الإسلامي بصفة عامة، فيركز عليها الأنظار، وينبه إليها الأذهان والعقول، ويوجّه تلامذته ومستمعيه إلى وجوب العمل الجاد المنظم لتخليص المجتمع منها(١)، ويغرس في أعماق النفوس أن القرآن الكريم ملاذ الأمة وحصنها الذي لا بديل لها عنه، ودستور حياتها الذي ارتضاه لها رب العالمين . ويذكر طلبته أنه أثناء رحلاته كثيراً ما يختار تفسير آية أو عدة آيات قرآنية لتكون موضوع الدرس المطلوب منه إلقاؤه في مختلف القرى والمدن التي يزورها .

وعندما أبدى تلامذته المقربون إعجابهم الكبير بطريقته في التفسير وأسلوبه الفذ في تدبّر القرآن، وأدهشهم بغزارة علمه، وحسن استنباطه، وتوفيقه في تنزيل أحكام القرآن على الواقع الجزائري، رغبوا إليه أن يستغل هذه القدرات الفذة في تأليف الكتب النافعة، فأجاب أحدهم بما يكشف عن هدفه البعيد وحسن تقديره للوضع : " إن الشعب يا بنيّ ليس اليوم في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرجال . هَبْ أنني انصرفتُ إلى التأليف، وانقطعت عمّا أنا اليوم بصدده من نشر العلم وإعداد نشء الأمة من أمثالكم لمواصلة عملي، فمن يقرأ كتبي وتآليفي ما دام الشعب يتخبط في ظلمات الجهل والأمية. إن إعداد معلم واحد كفء يتصدى لمحاربة الجهل الفاشي في ربوعنا لخير لمجتمعنا من ألف كتاب "(٢).

فلم يصلنا من تفسيره إلا تلك المقالات التي كان يكتبها في مجلة الشهاب يفسر فيها بعض الآيات ويسميها "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" وقد أسف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رفيق دربه في الإصلاح على هذه الثروة العلمية التي ضاعت من المسلمين والتي لا تقدّر بمال فقال : " فإن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيّدها بالكتابة، ولو وُجد من يفعل ذلك لربحت الأمة ذخراً لا يُقَوَّمُ بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجّة هذا القرن على القرون الآتية، ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم مجالس التذكير، علم أي علم ضاع وأيُّ كنز غطّى عليه الإهمال "(٣).

ومثلما كان تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام ١٩٣١ م ردا على الاحتفالات الفرنسية بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر والإعلان عن تشييع جنازة الإسلام فيها، كان الاحتفال بختم ابن باديس لتفسير القرآن الكريم عام ١٩٣٨ م في حفل بهيج جدا دام قرابة أسبوع كامل ردا على قرار وزير الداخلية الفرنسي (شوطان) الذي صدر قبل حفل الختم بثلاثة أشهر، واعتبر أن اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر يحرم تعلُّمُها وتعليمها ، فكان هذا الاحتفال: " بمثابة مظاهرة إسلامية وقومية عبّرت فيها الجزائر عن أصالة عروبتها، وعمق إسلامها، وشدة تعلقها بكتاب العربية الأكبر : القرآن الكريم "(٤).

---

[١] – الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر . تركي رابح . ص ٢١٨

[٢] – من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين . باعزيز بن عمر . منشورات الحبر . الجزائر . ٢٠٠٦ . ص ٢٦

[٣] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. ج ١ . ص ٣٤٤

[٤] – الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر . تركي رابح . ص ١٨٢

ثالثا : تدبر القرآن عند ابن باديس : دلالاته وأبعاده:

١ ـ التدبر المفهوم والأهمية :

أ ـ مفهوم التدبر :

يدور لفظ التدبر في معناه العام حول النظر في عواقب الأمور والتفكّر في أدبارها، أما في معناه الاصطلاحي فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم، ويكاد معنى التدبّر يقتصر عليه لوروده في عدد من الآيات القرآنية التي تحث عليه وتستنكر إهماله، وتبيّن أهميته القصوى في تثبيت الإيمان ومعرفة الخالق عز وجل، وتيسير سبل الهداية والامتثال لأوامر الله ونواهيه بحب واستسلام .

وقد امتلأت كتب التفاسير والدراسات القرآنية بالتعاريف الكثيرة التي تدور حول معنى التدبر عند التعرض للآيات الكريمة التي ورد فيها هذا اللفظ ، وعرض كل واحد ما توصّل إليه جهده في فهم المراد القرآني، وإن كانت أغلبية هذه التعاريف تصب في مجرى واحد وتلتقي عند معاني متشابهة تنتهي إلى أن تدبر القرآن هو فهمه والنظر فيه بروية وتفكّر لاستخلاص المعاني العميقة التي يشتمل عليها والوقوف عند آياته والتأمل فيها والتفاعل معها للانتفاع بها والامتثال لما فيها.

قال النسفي في معنى "ليدّبّروا":"ومعناه ليتفكروا فيها فيقفوا على ما فيه ويعملوا به "(١)، وقال الشيخ سلمان السنيدي: " تدبر القرآن هو تفهم معاني ألفاظه والتفكر فيما تدل عليه الآيات مطابقة وما دخل في ضمنها، وما لا تتم تلك المعاني إلا به مما لم يعرج اللفظ على ذكره من الإشارات والتنبيهات وانتفاع القلب بذلك ، بخشوعه عند مواعظه ، وخضوعه لأوامره ، وأخذ العبرة منه"(٢).

وقال الشيخ الطاهر بن عاشور: "والتدبر: التفكر والتأمُّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنَّما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيه، بحيثُ كُلَّما ازداد المتدبر تدبرًا، انكشف له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر"(٣).

ويرى عبد اللطيف البريجاوي أن التدبر هو : "محاولة إخراج ما في النص من مختلف الدلالات التي لا تظهر بادي الرأي ، وليس من معنى التدبر : الإتيان بالغريب من الأقوال التي تعارض ظاهر النصوص ، وإنما هو كشف لمعاني مستكِنَّة في النصوص لا تتحصل إلا بالفهم العميق والنظر والتأمل الكثير"(٤) .

وقال الحسن البصري: "والله، ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتَّى إنَّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، وما يرى له القرآن في خلق ولا عمل"(١).

---

[١] – تفسير النسفي . أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي . دار الكتاب العربي . بيروت . ج ٤ . ص ٣٨

[٢] – تدبر القرآن . سلمان السنيدي. مجلة البيان . الرياض . ط ٢ . ١٤٢٣ هـ.٢٠٠٢ م . ص ١١

[٣] – تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . دار سحنون للنشر والتوزيع . تونس . ١٩٩٧ م . ج١١ . ص ٢٥٢

[٤] – رؤى في قصار السور . عبد اللطيف البريجاوي . ص ٢٧

ب ـ أهمية التدبر :

يكاد يجمع أغلب من تطرق إلى هذا المصطلح أن التدبر مقصد عظيم من مقاصد القرآن، وركن متين من أركانه لكونه سبيلاً ناجعاً من سبل التعامل مع كلام الله، والتفاعل الإيجابي معه، والتعرض من خلاله لنفحات الرحمن، واستمطار حسن توفيقه وإرشاده وهدايته، وحمل النفس على اتباعه، وترجمة تعاليمه إلى سلوك فعلي وهو الهدف الأكبر للرسالات السماوية والمهمة الأسمى للأنبياء والرسل. قال ابن تيمية :"حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن، والفهم الصائب أساس العمل الصالح، وإذا لم يتحقق حسن الفهم فإنه لا مناص من أمرين : الحيرة والاضطراب وعدم العمل، أو العمل على أساس منحرف أو مختل لا يوصل إلى الغاية المنشودة والنهاية المحمودة. والمراد بالتدبر تفهّم المعاني وتدبر المقاصد ليحصل الاتعاظ ويقع العمل، وهو أمر مهم جعله الله مقصداً أساسياً لنزول القرآن "(٢).

من هنا اكتسى التدبر أهميته القصوى في حياة الفرد والمجتمع ، وكان ـ منذ نزول القرآن الكريم ـ علامة فارقة في حياة الأمة : "ما كان الصدر الأول من سلفنا صالحا بالجبلّة والطبع، فالرعيل الأول منهم ـ وهم الصحابة ـ كانوا في جاهلية جهلاء كبقية العرب، وإنما أصلحهم القرآن لما استمسكوا بعروته، واهتدوا بهديه، ووقفوا عند حدوده، وحكّموه في أنفسهم، وجعلوا منه ميزاناً لأهوائهم وميولهم، وأقاموا شعائره المزكّية، وشرائعه العادلة في أنفسهم وفيمن بليهم كما أمر الله أن تقام، فبذلك أصبحوا صالحين مصلحين "(٣).فهو تجلّ لأسمى علاقة تربط المسلم بكلام ربه، لأن التدبر ينبع من الاهتمام الكبير الذي يوليه المتدبر لما بين يديه من الآيات الكريمة، يبحث فيها عن منهج الحياة التي ينبغي أن يحياها، ويستنطق الآيات ويُسائلها عن أمور حياته كلها كيف يريد الله منه أن يسير فيها، ويغوص بفكره عميقاً في ألفاظها ومعانيها لعله يقتبس نوراً من أنوارها إيمانا منه أن هذا الكتاب الكريم قد جمع بين دفتيه خيري الدنيا والآخرة : " ﭽ **وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾** ﭼ النحل: ٨٩ وإيقانا بما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هو حبلُ اللهِ المتينِ وهو الذِّكرُ الحكيمُ وهو الصِّراطُ المستقيمُ ، هو الَّذي لا تزيغُ به الأهواءُ ولا تلتبِسُ به الألسِنةُ ولا يشبَعُ منه العلماءُ ولا يخلَقُ عن كثرةِ الرَّدِّ ولا تنقضي عجائبُه) (٤).

هذا الاهتمام الواعي هو الذي ينقل الوحي الإلهي الذي نتلوه من السطور ليتحوّل إلى واقع عملي معيش، ويتجسّد في شكل سلوكيات ذات أبعاد حركية توجّه العمل الإنساني وتعطيه صبغته المتميّزة وتنأى به عن الأهواء وتنزهه عن المصالح الضيقة، وهذا هو الهدف الأساس الذي نزل من أجله القرآن الكريم ، حيث تكمن قيمته الحقيقية في قدرته على التغيير وترشيد حركة البشرية في تدافعها وإفساح المجال له ليقودها : " فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبّر

---

[1] – تفسير القرآن العظيم . إسماعيل بن عمر بن كثير . تحقيق : سامي بن محمد السلامة . دار طيبة للنشر والتوزيع . ط ٢ . ١٤٢٠ هـ. ١٩٩٩ م . ج ٤ . ص ٤٣

[2] – مجموع الفتاوى . تقي الدين بن تيمية . تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . المملكة العربية السعودية .١٤١٦ هـ. ١٩٩٥ م. ج ١٣. ص ٣٣٠

[3] – آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . ج ٤. ص ٢٢٧

[4] – رواه ابن كثير في فضائل القرآن . رقم ٢٤

والتفكّر ، فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العالمين، ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها ...؛لأن قراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب"[1] .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن السعدي موضّحا أهمية تدبّر القرآن والثمرات اليانعة التي يجنيها المتدبّر له : "يأمر – تعالى – بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتَج كلُّ خير وتُستَخرَج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرِّف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال، وما يُنزَّه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرةً ، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه (هو) المقصود بإنزال القرآن »[2] .

والعاكف على القرآن المتدبّر في آياته برغبة قوية ونية صادقة لا بدّ أن تمتلئ نفسه نوراً، وتتفتّح بصيرته على حقائق الوجود، وتنكشف له أسرار الحياة التي كانت خافية عليه، وتتجلّى له سنن الله التي تحكم الأنفس والآفاق فيحسن تحليل الأحداث ووزنها بالميزان الصحيح ليضعها في موقعها الصحيح من هذه السنن، ويقبل على نفسه يبحث فيها عن مواطن الخلل ليصلحها، ويعرض شؤونها على كتاب ربه ليقول كلمته فيها، ويتحوّل إلى طاقة حيّة، وهذا هو السبيل الوحيد ليستعيد القرآن الكريم حيويته وفعاليته.

وقد أشار المفكر الإسلامي محمد إقبال إلى هذا المعنى إشارة لطيفة حينما تحدث عن النصيحة التي أسداها إليه والده بخصوص تلاوة القرآن فقال له : " اقرأ القرآن كأنما أنزل عليك "؛ لأن قراءته بهذه الطريقة تستحضر القلب وتستدعي تركيز العقل، وتستشعر النفس أن الخطاب موجّهٌ لها فتستعد وتنتبه لتستجيب لأمر الله ، وهذا هو الهدف الأسمى للتدبر وهنا تكمن أهميته .

واعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن تدبّر القرآن هو الذي أحدث هذا الفرق الشاسع بين صدر الأمة الذي كان يقف على قمة المجد ويتربع على سنام الحضارة، وبين آخر الأمة الذي يعيش المغلوبية الحضارية والاستتباع الأممي، وفي ذلك يقول : " تدبّر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أول الأمة وآخرها وإنه لفرق هائل، فعدم التدبّر أفقدنا العلم،

---

[1] – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة . ابن القيّم . دار ابن عفان . الخبر . المملكة العربية السعودية . ط١ . ١٤١٦ هـ . ص ٢٢١

[2] – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . عبد الرحمن السعدي . مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ٢٠٠٢م. ج ١ . ص ١٨٩ . ١٩٠

وعدم الاتباع أفقدنا العمل. وإننا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه، ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات "فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون" "(١) .

وفي تشديده على أهمية التدبر في حياة المسلم يقول ابن باديس في تفسيره لقوله تعالى : ﭽ **وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﭧ** ﭼ الفرقان: ٧٣: " قد صوّرت الآية حالة المؤمن بالقرآن الذي ينكبّ عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهّمه ولا يتدبّره بحالة الأصمّ الأعمى في عدم انتفاعه بما انكبّ عليه، تقبيحاً لعدم الفهم والتدبّر من المؤمن للآيات، وتحذيراً منه، وتنبيهاً على الانتفاع بالقرآن الذي تتفتّح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكّى به النفوس، وتتقوّى به الأعمال، وتستقيم به الأحوال، إنما يكون بتفهّمه وتدبّره دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهّم ولا تدبّر "(٢).

واعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن أسلوب التعامل مع القرآن الكريم هو الذي يتحكم في النتائج المترتبة عنه، وأن ما حصل مع الجيل القرآني الأول سيتكرر إذا توفّرت مقدماته الأساسية وهي حسن تدبّره والعمل بمقتضى هذا التدبّر: "وكما أتى القرآن لأول نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر، فإنه حقيق بأن يأتي بتلك المعجزات في كل زمان إذا وجد ذلك الطراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعممته، فإن القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلا إذا تولّته بالفهم عقول كعقول السلف، وتولّته بالتطبيق العلمي نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهممهم. أما انتشاره بين المسلمين بهذه الصورة من الحفظ المجرد، وبهذا النمط من الفهم السطحي، وبهذا الأسلوب من التفسير اللفظي، فإنه لا يفيدهم شيئاً ولا يفيد لهم شيئاً، بل يزيدهم بعداً عن هدايته، ويزيد أعداءهم استخفافاً بهم، وإمعاناً في التغلب عليهم"(٣).

٢ ـ الأبعاد الكبرى للتدبر:

كان اختيار ابن باديس لتفسير القرآن وتدبّره ليبني عليه إستراتيجيته لإيقاظ الشعب الجزائري من سباته وبعث بشائر النهضة في أوساطه يستلزم منه إيجاد الطريقة التي تتناسب مع الظرف التاريخي الاستثنائي الذي كان يعيشه، فلم يكن الوضع يسمح بالتبسط في المسائل اللغوية والفقهية، والدخول في الاختلافات الكثيرة التي شغلت علماء الإسلام طوال قرون عديدة، ولا الوقت الحرج يتيح له بسط المسائل البلاغية بكل تعقيداتها، ولا المباحث الفلسفية المغرقة في التجريد. ولم يكن يهدف إلى أن يضيف تفسيرا جديدا إلى التفاسير الكثيرة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية وإنما كان هدفه الأول والأخير إعادة الشعب الجزائري إلى حظيرة القرآن بعدما أبعدته عنه قرون الجمود العقلي والتعصب المذهبي والتصوف المنحرف، وحجبه الاستعمار الفرنسي عن الاهتداء بنوره : "وكان يرى ـ حين تصدى لتفسير القرآن ـ أن في تدوين التفسير مشغلة عن العمل المقدم وإضاعة لعمر الضلال ، لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتتعجّل

---

[١] – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . ج ١ . ص ٣٢٧

[٢] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٣٨٧

[٣] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. تقديم : محمد البشير الإبراهيمي . ص ٢٠

من الاهتداء به ما يتعجّله المريض المنهك من الدواء ، وما يتعجّله المسافر العجلان من الزاد، وكان يستطيع أن يجمع بين الحسنيين لولا أنه كان مشغولا مع ذلك بتعليم جيل وتربية أمة ومكافحة أمية ومعالجة أمراض اجتماعية ومصارعة استعمار يؤيدها . فاقتصر على تفسير القرآن درسا ينهل منه الصادي ، ويتزود منه الرائح والغادي ، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة"[١].

لذلك رأى أنه يحتاج إلى أسلوب حكيم ومنهج رصين وفعّال ، يعيد للقرآن الكريم حيويته في النفوس ويبعث طاقته الفياضة في الجموع التي غشيها الجهل المطبق، وأفسدت عقيدتها التصورات السقيمة والاعتقادات الضالة التي شوّهت الحقيقة الإسلامية الناصعة، وقد هداه تفكيره إلى أن أسلم طريق للوصول إلى هذا الهدف هو التوجّه إلى القرآن الكريم مباشرة والعكوف عليه وتدبّره وفهمه واستنطاق آياته الكريمة لاستلهام الحلول منه بدون وسائط إلا ما يحتاجه المتدبّر من وسائل ضرورية لفهم النص الإلهي في ألفاظه ومعانيه، مراعاة للظروف العصيبة التي كانت تحيط به من كل مكان، والتحديات التي تلقي بظلالها القاتمة على ساحة العمل، وكان يقول في أمل وتفاؤل وثقة كبيرة في الله عز وجل : " إن القرآن الذي كَوَّنَ رجال السلف لا يكثر عليه أن يُكَوّنَ رجالا في الخلف لو أُحْسنَ فهمه وتدبُّره ، وحُملَت الأنفس على منهاجه "[٢].

وهذه الإستراتيجية التي استقرّ عليها رأيه، وعقد عليها عزمه، واطمأن لها قلبه، كان لها أعظم الأثر في الواقع ، وأزكى الثمار، حيث كان يفسر القرآن الكريم تفسيرا بسيطا عمليا يجعل المستمع يحس أن الوحي يخاطبه مخاطبة مباشرة، ويأمره وينهاه، ويطلب منه التحرك والتغيير، والاتجاه نحو ربه دون واسطة، ويجعله يشعر أنه معنيّ بهذا الخطاب ومطالب بالاستجابة. ويذكر تلميذه الشيخ أحمد حماني أن التفسير الذي كان يلقيه ابن باديس درسا لا يشبه في شيء التفسير الذي كان يكتبه في مجالس التذكير وأن الفرق بينهما كبير ، مؤكدا أن دروس التفسير الشفوية كانت أبلغ وأعمق وأوسع تطرقا إلى المعاني الخفية وإبانة عن المقاصد والحكَم : " في خمسة وعشرين عاما ختم ابن باديس تفسيره للقرآن الكريم إلقاءً، ولكنه لم يكتب منه إلا قليلا، وكان له في كلّ منهما أسلوب وطريقة، يحس بذلك كل من استمع إليه يلقيه ارتجالا، أو قرأه مكتوبا بقلمه بمجالس التذكير بمجلة الشهاب. ومَنْ جمع بينهما . سماعا وقراءة . تيقّن أنه في الدرس المُلْقَى أبلغ منه وأعظم تأثيرا منه في المكتوب المقروء، وإن كان فيه مُوَفَّقا عظيم التوفيق، إذ كان في إلقاء التفسير يبلغ به ما شاء الله أن يبلغ في نفوس السامعين، وقلوب الواعين، وعقول الحاضرين"[٣] .

وقد تمحور هذا العمل الحضاري الضخم حول جملة من الأبعاد الكبرى من أهمها :

١ ـ البعد الهدائي :

برز البعد الهدائي في إستراتيجية ابن باديس بقوة و وضوح، وكانت آثاره في أعماله بادية للعيان بحيث لا تكاد تخفى على أحد. ولا عجب في ذلك ، فقد كان في هذه الأمة بمنزلة الطبيب الذي يشرف على علاج مريض يحتضر بعد

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. تقديم : محمد البشير الإبراهيمي. ص ٢٥

[٢] – الشهاب . عدد خاص ١٩٣٨ . ج ٤ . ٥ . مج ١٤ . ص ٢٣١

[٣] – ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر . أحمد حماني. " تفسير ابن باديس ومناهجه في التأويل" . ص ٢٥٣

أن أثقلته العلل والأسقام، أو مصاب أثخنته الجراح وكاد نزيفها يودي به، وكان كل همّه أن يسرع بإعطاء الدواء الناجع، وأن يتعاهد هذا العليل بما ينفعه من الجرعات القرآنية التي تعيد إليه رمقه ليستجمع قوته من جديد ويقف على قدميه سليما معافى.

لذلك كانت جهود ابن باديس العلمية والعملية كلها تصب في هذا المجرى ، في سبيل إيقاظ الأمة وتنبيهها من غفلتها وتطهير روحها من البدع والخرافات وتحصينها بالعقيدة الصحيحة ، وتغذية عقلها بالعلم النافع المفيد ، وربطها بتاريخها ولغتها ووطنها. ولم تكن التحديات الضخمة التي تواجه حركته التجديدية تتيح له فرصة للترف العقلي، أو النظرات الفلسفية، أو الذهاب مع الخلافات الكلامية والتفريعات اللغوية والبلاغية ، بل كان متجها بكلّيته إلى بناء الإنسان بناء جديدا، وكان القرآن الكريم هو المعين الصافي الذي كان يسقي منه مرضاه ليصحّوا، ويصيروا خلقا آخر غير ذلك الذي أنهكته الأمراض، وحطّمته ظروف الاستعباد، وأسرته الأفكار الانهزامية فغدا كالبيت الخراب .

ولعلنا لا نجد مثالا يصور لنا تجذّر البعد الهدائي في إستراتيجية ابن باديس من تفسيره الذي كان موجّها في أساسه الأول إلى تكوين جيل قرآني يضاهي السلف الصالح في عقائده الصافية، وأخلاقه العالية، وارتباطه القوي بمرجعيته القرآنية، وفهمه لها فهما عمليا يفضي بشكل تلقائي إلى تنزيل قيمها على أرض الواقع لتتجسد في الأفهام والتصورات والسلوك بعيدا عن التأويلات والجدال العقيم : " فما إن ينتهي من شرحه للمناسبة والمفردات والتراكيب النحوية والمعنى الإجمالي للجملة القرآنية حتى يطوف بنا في أجواء الآية الكريمة مستخلصا العبرة والعظة ... وفي سبيل تحقيق هذا الهدف فإنه قد ينبه أحيانا إلى فوائد يتصل تحقيقها بتنفيذ الجانب العملي من الآية ولو بأقل صلة أحيانا ، وهنا يبرز الاستطراد البديع والإطناب الواقعي والاستنباط النافع المجدي "(١) .

وإن استعراضا سريعا لتفسيره يجعلنا نقف على مجموعة من العناوين الفرعية التي يذيل بها شروحه، والتي تنبئ عن براعته في تدبّر القرآن والوقوف عند أبعاد نصوصه المعصومة، وتؤكد أن الغرض الرئيس منها هو تيسير سبيل تطبيق الآيات القرآنية تطبيقا عمليا بربطها بالواقع ربطا وثيقا ، وبيان صلتها بظروف الإنسان المسلم الراهنة وحالته الاجتماعية مثل : الجانب العملي في الآية ، إرشاد ، تطبيق ، تحذير ، عبرة ، عظة ، سلوك ، توجيه ، تبصير ... إلخ

والأمر نفسه نجده في الطريقة التي انتهجها في تدريس العقيدة، حيث اتبع في تلقينها الطريقة العملية في تعليم أصول العقائد الإسلامية، وكان يستدل عليها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام في تربية أصحابه، واقتداء بسيرة السلف الصالح في الاعتقاد، لأنه كان يرى أن طريقة القرآن في تقرير العقيدة لا تعدلها طريقة أخرى في بساطتها وعفويتها وحسن مدخلها إلى النفوس، على عكس ما كان شائعا في طرق المتكلمين والفلاسفة من إجهاد للعقل وإعنات للفكر، وأنها أنسب طريقة لمعالجة أمراض الشعب الجزائري وتطهير عقيدته وتصحيح أفهامه .لذلك كان يركز على النواحي الهدائية على اعتبار أن التوجيهات العقدية التي يقدمها لمستمعيه هي مشروع للتنفيذ على أرض الواقع ، وليست مسائل للمناقشة و تبادل الآراء .

---

[١] – عبد الحميد بن باديس مفسرا . حسن عبد الرحمن سلوادي . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر . ١٩٨٤ . ص ٧١

٢ ـ البعد التطبيقي :

وهو واضح وبارز بروزا جليّا في إستراتيجية ابن باديس . فقد كان من بين أهدافه الكبرى أن يجعل من الآيات القرآنية التي يفسّرها للناس حافزا قويّا يدفعهم إلى تطبيقها في أرض الواقع وتجسيدها في سلوكهم اليومي وترجمتها إلى عمل صالح يزكّي النفس وينفع المجتمع . لذلك فإن الإشارات التي تقيم العلاقة الوثيقة بين الآية وما يجري في الواقع المعيش كثيرة ولا يكاد يخلو منها مجلس من مجالسه . يوردها في آخر التفسير على شكل ملاحظة أو تنبيه أو استنتاج ليشدّ إليها الأذهان ويحرّك العقول ويلقي في روعها أن الخطاب موجّه إليها، وأن الآيات القرآنية منهج متكامل ينظّم حياة الإنسان ويوجّهها إلى أقوم السبل .

والأمثلة على ذلك كثيرة ولا تكاد تحصى، إذ تكاد ظاهرة الربط الوثيق بين الاعتقاد والعمل تكون السمة الغالبة على دروسه لصلتها المباشرة بواقع الأمة وبحركة الحياة وسلوك الإنسان : " لقد تحوّل التفسير إلى مسار عودة إلى كتاب الله، وإلى حلقة وصل بين القرآن والحياة من دون أن يَبدو التكلّف في ذلك "(١).

ففي تفسيره لقوله تعالى : ﭽ **قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦** ﭼ الإسراء: ٥٦ يتطرّق ابن باديس . بعد أن ينتهي من بيان معنى الآية . إلى ظاهرة خطيرة تفشّت في المجتمع الجزائري بسبب نفوق العلم وعموم الجهل وانحراف الطرق الصوفية وهي التوجّه بالدعاء للأولياء والصالحين من أصحاب الأضرحة والتماس الرزق والنسل ودفع المرض عندهم وتقديم القرابين لهم رجاء استجلاب بركتهم . وكان لهذا الاعتقاد الضال والشرك الظاهر أثره السلبي على العقول والإرادات، فأراد ابن باديس أن يحرّر جموع الشعب من هذا القيد الثقيل ويعيدهم إلى صفاء التوحيد لتتخلّص نفوسهم من أكدار الجهالة وتتهيّأ للحياة الجديدة فيقول : " لما ثبت شرعا أن الدعاء عبادة فمن دعا شيئا فقد عبده، ولو كان هو لا يسمي دعاءه عبادةً جهلا منه أو عنادا ؛ لأن العبرة بتسمية الشرع واعتباره، لا بتسمية المكلّف واعتباره ...إذا علمتَ هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقا في هذا الضلال. فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات، يسألونهم حوائجهم من دفع الضرّ، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون. ويذهبون إلى الأضرحة التي شُيّدَت عليها القباب أو ظُلّمت بها المساجد فيدعون من فيها ... وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتَوَجُّه قد لا يكون في صلاة من يصلّي منهم... فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال"(٢).

ثم يعقّب على ذلك بتحذير وإرشاد يقول فيه : " فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله ، وليحذّروا غيرهم منه، ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين ما استطاعوا، عسى أن ينتبه الغافل، ويتعلّم الجاهل،

---

[١] – عبد الحميد بن باديس مفسرا . حسن عبد الرحمن سلوادي . ص ٦٠

[٢] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ١٨٢ . ١٨٣

ويُقْلع الضالون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج...فبادروا إلى توحيد الله بالدعاء الذي هو مخ العبادة، واقتصروا في جانب الصالحين على محبتهم والترضية عليهم، وسؤال الرحمة لهم "[١].

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﭽ **وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦** ﭼ الإسراء: ٢٦ يحاول ابن باديس أن يغيّر النظرة السائدة لدى عامة الناس من استحباب الفقر وترك السعي لتحصيل المال بدعوى الزهد في متاع الدنيا طمعا في جنة الآخرة، فيبيّن لهم أن المال عصب الحياة: "وهو قوام الأعمال، وأداة الإحسان، وبه يمكن القيام بالحقوق "[٢]، وعلى المسلم واجب تحصيله من وجوهه الشرعية، وتوفيره وتثميره والتزام حدود المصلحة في إنفاقه ، ثم يعرّج بهم إلى إحدى الظواهر الاجتماعية التي تنتشر بين الناس والتي تصطدم بهذا التوجيه القرآني ويسقط عليها هذه المعاني لينبّههم إلى خطرها وهي تبذير الأموال والإسراف في اقتناء الكماليات في الولائم والمآتم مما يعرّض الأموال للضياع دون أن تستفيد منها الأمة وهي في أشد الحاجة إليها :" حالة وطننا في الأعم الأغلب في الولائم والمآتم لا تخلو من السرف فيها والذي يؤدي إلى التقتير من بعدها، فيكون الإثم قد أصاب صاحبها بنوعيه، وأحاط به من ناحيَتَيْه "[٣].

ولا ينسى ابن باديس أن يعرض في هذا المقام لظاهرة اجتماعية أخرى أفسدت العقيدة وذهبت بأموال الشعب فيما لا طائل تحته وهو الإنفاق على زيارة القبور وقباب الأولياء والتبرك بها والذبح عندها ونذر النذور لها طمعا في جلب الخير ودفع الضرّ مع ما يترتّب على هذه ....من إهدار للمال العام وتضييع للحقوق في الوقت الذي يمسك كثير من الناس أيديهم عند طلب التبرع لتأسيس مدرسة عربية أو سد الحاجيات الضرورية لطلبة العلم القادمين من مناطق بعيدة أو شراء لوازم للمسجد أو غيرها من وجوه البر الذي يعود بالنفع على الأمة :" وشرّ ما في هذا الشر أنه يرتكب باسم الدين، ويحسبه الجُهَّال أنه قربة لرب العالمين: فأما إذا جاء وقت شدّ الرحال إلى الأحياء والأموات، وتقديم النذور والزيارات، فحدّث هنالك عن أنواع السّرف والكلفات، والتضييع للحقوق والواجبات"[٤].

٣ ـ البعد التربوي:

كان ابن باديس رجل تربية من الطراز الأول ، وقد استغل كل مواهبه في هذا المجال ليحقق هدفا أساسيا من أهداف النهضة وهو بناء الإنسان وتأليف الرجال وتنشئة الأجيال الصاعدة على العلم الصحيح والخلق المتين والإرادة القوية والطموح إلى المعالي .

وكان ارتكازه في هذا المجال أيضا على القرآن الكريم وتدبّره، واستخلاص قواعد الأخلاق وأسس بناء الإنسان منه ، فهو المصدر الرباني الذي أنزله خالق الكون : " ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"(الملك،١٤) وهو أصل كل

---

[١] – المصدر نفسه . ص ١٨٤

[٢] – المصدر نفسه . ص ١١٩ . ١٢٠

[٣] – المصدر نفسه . ص ٣٥٦ . ٣٥٧

[٤] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٣٥٧

خير ومصدر كل فضيلة : " بيّن القرآن الكريم مكارم الأخلاق ومنافعها ، ومساوئ الأخلاق ومضارها ، وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلّي بتلك مما يحصل عليه الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة "(١).

ومثلما عمل ابن باديس على تنقية الأخلاق وتهذيب الطباع وترقية السلوك، عمل في الوقت ذاته على التشجيع على العلم والترغيب فيه ، والحث على تحصيله وبيان ما له من فائدة للإنسان ، موضحا منزلة العلماء في القرآن الكريم ، وفضلهم عند الله ومنوّها بدور العلم في تفتيح الأذهان وتنوير العقول مما يكسب الإنسان قيمة كبرى يستطيع بها أن يكون فاعلا في الحياة فلا يعيش كلاًّ على غيره ولا عالة على مجتمعه ولا عبدا ذليلا لمن هو أقوى منه: "لا حياة إلا بالعلم ، وإنما العلم بالتعلّم، فلن يكون عالما إلا من كان متعلما، كما لن يصلح معلما إلا من قد كان متعلما...لكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعلّم وتوسّع فيه وتكمّل فلن يزال بحاجة إلى العلم...فعليه أبدا أن يتعلم، وأن يطلب المزيد، ولذا أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم . وهو المعلم الأعظم . أن يطلب من الله أن يزيده علما فقالچ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾** چطه: ١١٤ "(٢).

وقد استنبط من الآية القرآنية : " چ ـ **عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾** چ النمل: ٢١ حكمة بليغة تتمثل في أن حرمان الإنسان من العلم فيه مسخ له؛ لأنه بشكل من الأشكال محوٌ لإنسانيته، وطمس لآدميته التي فُضّلَ بها على سائر المخلوقات : " والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب، فمَنْ حَرَمَ إنسانا فردا أو جماعة من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية، وحَوَّلَهُ إلى عيشة العجماوات، وذلك نوع من المسخ، فهو عذاب شديد، وأيُّ عذاب شديد"(٣).

كما تضمنت نظراته العميقة في الآيات القرآنية توجيهات تربوية غاية في السداد، كان يسديها لجمهوره من الطلبة والعامة، وينصح بها المعلمين لينشئوا عليها الصغار فيشبوا أسوياء نجباء . ولم يكن يستثني من مهمته التربوية أحدًا ، إذ كان يعتقد أن النفس الإنسانية . كما أخبر عنها القرآن . في حاجة دائمة إلى التزكية بالأخلاق والاستبصار بالعلم حتى تبلغ أرقى درجات الكمال الإنساني. فيجب على كل فرد أن يستشعر في نفسه النقص حتى تتحرّك همّته نحو طلب الكمال فتظل في ارتقاء صاعد دائما ، وكلما ارتقت زادت المعاني الإنسانية فيها تألقا يستوي في ذلك الكبير والصغير، المحسن والمسيء، فالجميع مطالبون بالسعي الدائم نحو الأفضل والأحسن، مع الثقة في النفس وعدم احتقار الذات؛ لأن ذلك مناف للنظرة القرآنية للإنسان باعتباره مخلوقا مُكَرَّمًا :" " ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك، وأخلاقنا من الفساد، وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد، ولنشرع في ذلك غير محتقرين

---

[١] – المصدر نفسه . ص ٢٨٢

[٢] – المصدر نفسه. ٥٧٤ ـ ٥٧٦

[٣] – المصدر نفسه. ص ٤٤٦

لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستَقلّين لما نزيله كلّ يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله"(١).

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ﭽ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﭼ الفرقان: ٧٤ :"طلب الرتب العليا في الخير والكمال، والسبق إليها والتقدم فيها مما يدعونا إليه الله، ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه... فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى إذا لم يصل لم يبعد، وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية"(٢) .

ونوّه بالأسلوب القرآني في تربية الأفراد، وبيّن أثره البعيد في بناء الأخلاق وتصفية النفوس من أكدار المعاصي وشوائب الآفات النفسية والاجتماعية التي تعتريها فقال :"إذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته للعباد في الدارين، وكذلك إذا نهى عن شيء ذكر مضرّته وسوء عاقبته عليهم فيهما...هذه هي سنة القرآن في التربية ، وهي أنجح الطرق في جعل المأمور والمنهيّ يمتثل للأمر والنهي في كلّ نفسه ، ويعمل لتنفيذها بعقله وإرادته. فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم والانقياد لهما انقيادا أعمى مخالفة لتربية القرآن . والخير كلُّه في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن "(٣) .

وقرن في جميع نظراته وإرشاداته التربوية بين العلم والعمل كما هو دأبه دائما، فكان يوضّح لمستمعيه الطرق القرآنية لتربية النفس وتزكيتها وتخليصها من العادات القبيحة والخلال الفاسدة، فأرشد المسلم إلى أن : " يواظب على الطاعات بأنواعها، وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه"(٤).

واعتبر أن تربية النفس بتزكية بالأخلاق وتنويرها بالعلم يؤدي بالضرورة إلى تقوية الإرادة التي هي الدليل القويّ على امتلاك الإنسان لزمام نفسه وقدرته على الفعل:" العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان"(٥) .

وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى تكوين الإنسان السويّ الإيجابي العامل، وربط الأفراد بشبكة قوية من العلاقات الاجتماعية؛ ليضمن المحافظة على مقومات الشخصية الإسلامية، ويعمل على إثرائها وتجديدها وتفعيلها ليتمكن الشعب من خوض غمار المواجهة الحضارية التي تنتظره .

٤ ـ البعد السني :

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ص ١٩٧

[٢] – المصدر نفسه. ص ٣٩٤

[٣] – المصدر نفسه . ص ٣٦٤

[٤] – المصدر نفسه . ٣٥٩

[٥] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ١٤٩

إن العكوف الدائم على القرآن الكريم قراءة وتأملا وتدبرا ، والتفكر في سير التاريخ الإنساني بهدف الاعتبار والاتعاظ، واستنطاق الواقع وتحليل مجرياته قد أنار بصيرة ابن باديس ويسّر له السبل لإدراك أسرار نهوض المجتمعات وسقوطها، وتقدّم الأمم وتخلّفها، وقيام الدول وانهيارها، حين تبيّن له أن أحداث التاريخ ليست اعتباطية عفوية ، بل هي حركة واعية وسنن صارمة، دقيقة وثابتة يخضع لها العالم الإنساني، وقد وضعها الله وقدّرها لتحكم حركة الحياة والأحياء، وهي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي أحدا، كما أنها مطّردة ، تتكرر نتائجها كلما توفرت مقدماتها : ﭽ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن ى ى ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾** ﭼ الأحزاب: ٦٢.

واستنتج من كتاب الله أن القرآن قد وجّه المسلمين إلى هذه الناحية، وأكد عليهم ضرورة السير في الأرض حتى يكتشفوا هذه السنن التي تحكم حركة الأنفس والمجتمعات، و يتمكنوا – بالتالي– من تسخيرها في الإنجاز الحضاري. ومن ثَمَّ احتل البعد السنني موقعا هاما في إستراتيجيته، وكانت له آثاره البارزة في حركته التجديدية وفي توجيهاته وأساليب نشاطه . غير أن هذا التوجه يبدو بارزا بشكل واضح في دروسه التفسيرية التي تحفل بالتنبيه إلى هذا الجانب الهام؛ لأنه لاحظ أن المسلمين في أغلبهم غافلون عن هذه السنن، وكثيرا ما يكتفون في استعراض الحوادث بالوقوف عند الظواهر دون البحث عن العلل التي تقف وراءها، والاهتمام بالنتائج والغفلة عن مقدماتها .

وهذا الداء الذي أصاب العقل المسلم في القرون المتأخرة هو الذي دفع بالمسلمين إلى الركون إلى التفسير العجائبي للحوادث، وعدم ربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، والإيمان بالمعجزات والكرامات التي تدفع إلى الكسل والخمول والتواكل، ولا دواء له إلا بتوجيه المسلمين إلى فقه هذه السنن بتدبّر القرآن الكريم، وإدراك مدى تأثيرها في الفعل الإنساني ومآلاته، وبذلك تتغير نظرتهم للأحداث، ويتغير أسلوبهم في التعامل مع الواقع، ويكتسبون . بالتالي . حصانة فكرية تمكنهم من تحديد أسباب فشلهم وتخلفهم ، ومن ثم تضعهم في الطريق الصحيح لتداركها والانطلاق انطلاقة جديدة ومدروسة .

ففي تفسيره لقوله تعالى : ﭽ **كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا** ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ **﴿٢٠﴾** ﭼ الإسراء: ٢٠ ، أكد أن البشر في الحياة الدنيا قد تساووا في الخلقة، وفي العقل المميز المفكر، وفي الإرادة الحرة، وفي التمتع بطيبات الحياة الدنيا، فكل واحد يأخذ حظه من هذه النعم بقدر أخذه بالأسباب الموصلة إليها، يتساوى في ذلك المؤمن والكافر، لأن الله تعالى لم يجعل العصيان سببا لمنع الرزق، ويخلص إلى أن الآية أفادت : " أن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيها مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسّك بسبب بلغ . بإذن الله . إلى مسبّبه، سواء أكان برا أو فاجرا ، مؤمنا أو كافرا "(١) . ويضرب لذلك مثلا بالمسلمين حينما فقهوا كتاب ربهم وتدبّروا معانيه بعمق وتشبعوا بالثقافة السننية فأخذوا بأسباب التقدم فنبغوا في العلوم، وبرعوا في الصنائع، وبهما سادوا العالم أجمع : " وقد تأخروا حتى كادوا يكونون

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ، ص ٨٢

دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولن يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب "[١] .

ويعقّب على ذلك بأن إدراك المسلم للأسباب الحقيقية التي أوصلته إلى هذا الدرك الأسفل من التأخر هو الذي يفتح بصيرته ويمكّنه من تفسير الأحداث تفسيرا صحيحا، و فهم الواقع الذي يعيشه فهما صائبا، ويعي تماما لماذا تخلف المسلمون وتقدم الغربيون في ضوء سنن الله التي لا تحابي أحدا، وحتى لا يذهب الجهل به إلى التساؤل عن خذلان المؤمنين وعندهم الحق، وانتصار الكفار وهم على باطل وانحراف، لأن هذا التساؤل ليس محله هنا : " فهذه الآية من أنجع الداء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم، لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه وأن غيره تقدم بعدم إسلامه، لأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك أو الترك للأسباب، ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام ، لكان . مثل سالف أيامه . سيد الأنام "[٢] .

وفي تفسيره لقوله تعالى : ﭽ ﭐ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا پ ٻ ﭙ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ١٨ ﭼالإسراء: ١٨ يلح ابن باديس على هذا البعد السنني ويركز . بشكل خاص . على أن الأخذ بالأسباب هو السبيل الموصل إلى الأهداف، وأن اختلاف الاعتقادات لا دخل له في النجاح أو الفشل : " وقد أفادت هذه الآيات كلها أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة . بإذن الله تعالى . من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسنته في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدّق المرسلين. ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم "[٣] .

وينبه في مواضع أخرى إلى أن الأخذ بالأسباب باحترام سنن الله ليس قاصرا على الأفراد بل يشمل المجتمعات والدول أيضا : " ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته في ملك الأرض وسيادة الأمم : يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت به وبلغ بها، إلى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء، وكل محاولة لصدها عن غايتها، وهو آخذ بها مقضي عليها بالفشل"[٤] .

ويبرز البعد السنني واضحا أيضا في معالجته للمفاهيم الخاطئة والتصورات المنحرفة التي غلبت على العقول بتأثير من التيار الصوفي المتطرف والمنحرف الذي طغى على الساحة الإسلامية خلال القرون الأخيرة، حيث تناول بالنقد والاستنكار ما درج عليه بعض الناس من الاعتقاد بأن الله يحب إليهم الفرار إليه وترك الدنيا واعتزال المجتمع لينالوا رضاه

---

[١] – المصدر نفسه ، ٨٢

[٢] – المصدر نفسه، ص ٨٢

[٣] – المصدر نفسه . ص ٦٧ ، ٦٨

[٤] – المصدر نفسه ، ص ٥٨٥

وينعموا بجنته، فيبين في تفسيره لقوله تعالى : ﭽ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي بم بى بي مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ ﭼالذاريات: ٥٠ (١)، أن المقصود ليس: " الفرار من الدنيا بترك السعي والعمل، وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها ... وقد ضلّ قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة، فعطلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة وحادوا عما ثبت عن السنة " (٢).

وقد عكست استراتيجية ابن باديس في فهم القرآن وتدبره خلال مسيرته الإصلاحية هذا البعد السنني الذي كان يثير . في بعض الأحيان . استغراب بعضهم وبخاصة الشباب المتحمس الذي لم ينضج بعد، ولم تعركه الأيام بالقدر الذي يوضح له الهدف البعيد الذي يسعى إليه الشيخ الجليل من خلال احترامه لسنن الله في عمله . ونتبين ذلك بوضوح في تشخيصه للواقع الجزائري تشخيصا دقيقا بعد تحليل مكوناته ومعرفة العناصر المؤثرة فيه، وفي تحديده لنقطة البداية، وفي اختياره لأسلوب العمل المناسب لكل مرحلة، وفي انتهاجه لسياسة الّنفَس الطويل والصبر الجميل، وعدم استعجال الثمرات قبل أوانها، وفي اعتماده على سياسة المرحلية والتدرج، وفي الالتزام بالعمل الجماعي المنظم، وفي استفادته من الخبرة الإنسانية وتفتحه على الثقافة العالمية ، وغيرها من المظاهر الكثيرة التي مكّنته من السير بقوة وثقة وثبات في طريق محفوف بالمكاره والأشواك والتحديات التي لا تصمد لها إلا الجبال الرواسي ، واثقا من وعد الله الصادق بأن من أخذ بالأسباب وسار وفق السنن الإلهية وصل .

وها هو يواجه الإدارة الاستعمارية عام ١٩٣٧ م بهذه الحقائق في صرامة وحزم وثقة متناهية وينبهها إلى أن مسيرة النهضة قد قطعت أشواطا بعيدة من مشوارها وتجاوزت مرحلة الاستضعاف ووصلت إلى مرحلة المواجهة السافرة بعد أن ثبّتت أقدامها في الأرض ، ولم يعد جبروت فرنسا يعني لها شيئا، فيقول موجّها خطابه إلى أحد الصحافيين الذي تحرّش بعلماء الجمعية وعبّر بوقاحة عن رفضه القاطع لأيّ إصلاحات تمس الجزائريين خوفا على مصالح المستوطنين :" ومما يؤسف له من أمثالكم أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام ، وتفكرون فيها . في القرن العشرين . بأفكار القرون الوسطى . إن الزمان . يا زميلي . يسير ولا يقف ، وسنن الكون نافذة لا تتخلف ، والويل لمن قعد أو تعامى "(٣)، أما ابن باديس فقد كان يدرك أن الله قد أنفذ سنته في الكون فأذن بتغيير حالة الشعب البائسة إلى حالة أفضل بعد أن أقدم الشعب على تغيير ما بنفسه مصداقا للآية الكريمة التي تؤكد أن توفيق الله وإنعامه على العباد بتغيير أحوالهم من السيء إلى الحسن لا يأتي إلا بعد أن يقبلوا بإرادتهم المحضة على تغيير ما بأنفسهم أولا : ﭽإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﭼالرعد: ١١: " وإنها لشرعة السماء : غيّر نفسك تغيّر التاريخ ، وعلى هدى هذه

---

[١] – الذاريات ، ٥٠

[٢] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٦١٠

[٣] – الشهاب . مج ١٣ ، ج ٨ ، ص ٣٨٣

الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري من النفس ، هادفا في جوهره إلى تغيير الإنسان، فبعث فيه روحا وثابة أشرقت معها بوادر النهضة الكبرى"[١].

رابعا : منهج ابن باديس في تدبر القرآن :

إن المنهج الذي اعتمده ابن باديس في تدبّر القرآن والتعامل مع نصوصه بغية استخدامه في بناء قاعدة النهضة، يخضع في كثير من جوانبه لمعطيات الواقع التي كانت تفرض عليه أن يأخذها جميعا بعين الاعتبار حتى تجد حركته الإصلاحية استجابة من القاعدة الجماهيرية التي يتوجّه إليها بالخطاب، وهذه الظروف الاستثنائية هي التي أعطت لمنهجه في تدبّر القرآن تميّزه ، وشكّلت طريقته توجّها جديدا في التعامل مع النص القرآني ، أثبتت نجاعتها ، وأثمرت مساعيها وأثارت إعجاب كثير من العلماء والدارسين الذين أكبروا في هذا الشيخ الجليل حسن اختياره ، وبراعته في التواصل مع كتاب الله ، ونجاحه الفائق في تحريك الجموع الغفيرة . وفيما يلي محاولة لتوضيح أهم القواعد والأسس التي يقوم عليها هذا المنهج : -

١ ـ استثمار عامل الزمن في تدبر النص القرآني وفهمه:

استلهم ابن باديس أسلوب تفسير القرآن تدريسا من الطريقة التي نزل بها القرآن الكريم منجّما . فقد رأى أن معالجة الفرد والمجتمع بهذه الطريقة الحكيمة التي تجعل من الزمن عاملا أساسيا من عوامل التغيير ستؤتي ثمارها الطيبة كما فعلت مع الجيل الأول حينما كان الوحي ينزل متفرقا ليتناول الأحداث والأشخاص والنوازل ويحكم فيها بحكم الله فيكون ذلك إيذانا بحلول تصور إسلامي جديد في الحياة بدل التصور الجاهلي الذي كان سائدا، إلى أن اكتمل تكوُّن المجتمع الإسلامي الوليد ثم الدولة الإسلامية الفتية على وقع خطى الوحي الذي كان ينزل تباعا من السماء .

وهو ينوّه بهذه الخاصيّة التي تميّز بها نزول القرآن ويبيّن أثرها البعيد في تغيير الواقع الجاهلي فيقول : " وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشُّبَهُ تُعْرَض ، والاعتراضات تَرِدُ، فكانت الآيات تنزل بما تتطلبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشُّبَهُ من ردّ، وتلك الاعتراضات من إبطال ... وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها ، وردّ الشّبه عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده ما فيه من تأثير في النفوس، ووقْع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التطبيق، واستيلاء على السامعين، وما كان هذا ليتأتّى لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب الذي بلغ الغاية في الحسن والمنفعة، حتى إنه ليصحّ أن يُعَدَّ وحده وجها من وجوه الإعجاز"[٢].

وفي موضع آخر يتحدث عن التعليم النبوي الذي كان يتناول المسلم بالإرشاد والتهذيب والتوجيه بالقرآن الكريم فيقول : " كان صلى الله عليه وسلم يعلم الناس دينهم من الإيمان والإسلام والإحسان كما قال صلى الله عليه وسلم في جبريل في الحديث المشهور : " هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم". وكان يعلمهم هذا الدين بتلاوة القرآن عليهم كما

---

[١] – شروط النهضة . مالك بن نبي . ص ٣٢

[٢] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٥٧ . ٢٥٨

قال تعالى: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ﭼ النمل: ٩١ - ٩٢ وبما بَيَّنَه لهم من قوله وفعله وسيرته وسلوكه في مجالس تعليمه، وفي جميع أحواله. فكان الناس يتعلّمون دينهم بما يسمعون من كلام ربهم، وما يتلقّون من بيان نبيّهم وتنفيذه لما أوحى الله إليه "[١].

فقد رأى ابن باديس أن هذا الأسلوب هو الأنسب والأنجع لمجتمع كاد يقطع صلته بمرجعيته القرآنية بسبب قرون الضعف والجمود، ثم شراسة حرب الإبادة الثقافية المنظمة التي شنّتها قوات الاحتلال الفرنسي على مقوماته الحضارية، وهو أن يعطي لهذا الشعب المريض المنهك الذي يشرف على الهلاك جرعات صغيرة من القرآن الكريم الذي يعالج في كل مرة جانبا من جوانب الحياة البائسة المحطمة التي يعيشها فيتقوّى يوما بعد يوم ببطء لكن بخطوات ثابتة وواثقة لها أثرها الواضح في سلوكه وواقعه. وفي سبيل تفعيل هذا الأسلوب وتعميمه دعا خطباء الجمعة إلى التخلّي عن الطرق التقليدية في استنساخ خطب القدماء المليئة بالسجع والبعيدة كلّ البعد عن روح العصر، والتأسّي بطريقة نزول القرآن منجّما عن طريق استغلال خطبة الجمعة لمعالجة قضية دينية أو اجتماعية أو اقتصادية تمسّ المجتمع مسًّا مباشرا وتشدّ انتباه المصلّين وتقدّم لهم الحلّ الإسلامي لمشكلاتهم والمخرج المثالي لأزماتهم : " انظر إلى الحكمة في تنزيل القرآن الكريم كيف تنزل آياته على حسب الوقائع، أليس في هذا قدوة صالحة لأئمة الجُمَع وخطبائها في توجّيهم بخُطَبهم الوقائع النازلة، وتطبيقهم خطبهم على مقتضى الحال؟ بلى والله ، بلى والله ".[٢]

وباتّكائه على هذه القاعدة التي استنبطها من طول النظر في كتاب الله وتدبّر آياته استطاع أن يعالج : "أمراض ومشاكل المجتمع الجزائري بالقرآن، واستطاع أن يربي للجزائر جيلا من أبنائها البررة تربية قرآنية كانوا عماد نهضتها العربية الإسلامية، وطليعة المناضلين من أجل تحريرها من المستعمر الغاصب"[٣].

وكان لهذه المعايشة الطويلة للنص القرآني أثرها البعيد في تدبر ابن باديس لكتاب الله والغوص في أعماقه واستصحابه في كل لحظات حياته، وسببا وجيها في قدرته الفذة على تنزيله على أرض الواقع واستلهام الحلول الناجعة منه لمختلف المشكلات التي تعرض له .

٢ ـ تجاوز القراءات المذهبية للنص القرآني:

كان لاتصال ابن باديس المباشر بالقرآن الكريم وعكوفه على تدبّره والتأمل في آياته تأملا شموليا والاستعانة في فهمه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة قد انتهى به إلى الاقتناع بأن جميع المذاهب التي نشأت في القرون التالية والتي زعمت أنها تخدم القرآن وتكشف أسراره وتجلّي حقائقه قد أسهمت بقصد من أصحابها أو دون قصد منهم في حجب نوره عن المسلمين وشغلتهم عن هدايته بما استحدثت من التفريعات وبما نتج عن هذه الحركات الفكرية

---

[١] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٤ . ص ٧٥

[٢] – المصدر نفسه . ج١ . ص ٢٥٨

[٣] – الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر. رابح تركي . ص ٢١٨

من الاختلافات التي عزلت كتاب الله وصبّت جلّ اهتمامها على الاجتهادات البشرية[١] والتي ثقلت وطأتها على الفكر الإسلامي خلال عصور الانحطاط والجمود حينما طغت عليها العصبية والتقليد الأعمى الذي فرّق شمل الأمة ومزّق وحدتها الفكرية ونشر بين أبنائها الأحقاد والضغائن ، وعبّر عن ضيقه من هذه الأساليب بقوله : " كنت متبرما بأساليب بعض المفسّرين، وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله . وأشعر بضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن "[٢].

ويضرب لنا مثلا حيّا عن أسلوب تفسير القرآن في جامع الزيتونة بتونس عندما كان طالبا به عام ١٩١٢ ليبرهن لنا كيف أن النزاعات المذهبية والخلافات قد طغت على هداية القرآن وحجبته عن النفوس وحرمت المسلمين من أنواره : "وفي جامع الزيتونة عمَّره الله تعالى، إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس التفسير، فإنَّه ويا للمصيبة يقع في خصومات لفظية... في القواعد التي كان يحسب أنّه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير. وإنّما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنّها تطبيقات للقواعد على الآيات، كأنَّ التفسير إنّما يُقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية. فهذا هجر آخر للقرآن، مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن!"[٣]، وهذه هي حقيقة التدبر عند ابن باديس .

وعندما يستعرض طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في تلقين العلم للصحابة الكرام، وفي تهذيبهم وتوجيههم وترشيد خطواتهم وتصحيح أخطائهم بالقرآن الكريم يعقّب على ذلك قائلا : "هذا هو التعليم الديني السني السلفي، فأين منه تعليمنا نحن اليوم وقبل اليوم منذ قرون وقرون؟ فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك . ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوما منزلة القرآن مِن تعلم الدين والتفقّه فيه ولا منزلة السنة النبوية من ذلك"[٤].

لذلك رجع في تدبره للقرآن الكريم إلى المنبع الأول، وتجاوز جميع القراءات المذهبية التي تناولته عبر القرون ، وعزف عن الاختلافات الكثيرة التي كبّلته بقيودها وغطّت على مشربه الصافي ، وقدّمه للجماهير المتعطشة غضا طريا كما كان يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه في بساطة ويسر تأسران القلب وتهزّان النفس وتحرّكان العقل بعيدا عن كلّ ما لحقه من الإضافات البشرية التي اصطبغت بعصرها وألقت بظلالها القاتمة على المنبع الأول للهداية .

٣ ـ تجاوز تعقيدات العلوم الآلية :

---

[١] – راجع : فلسفة الإمام ابن باديس في الإصلاح والتجديد . بركات محمد مراد . الصدر لخدمات الطباعة . القاهرة . ط ١ . ١٩٩٢ م . ص ٨٧

[٢] – ابن باديس حياته وآثاره . جمع وتصنيف : عمار الطالبي . مج ١. ج ١ . ص ٧٨

[٣] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٨٣ . ٢٨٤

[٤] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٤ . ص ٧٦

ومثلما تجاوز ابن باديس القراءات المذهبية التي جعلت من النص القرآني مطية لها؛ لتثبت صحة مقولاتها وتدعم توجهاتها الفكرية، تجاوز أيضا الكمّ الهائل من التعقيدات اللغوية والبلاغية التي ملأت بعض كتب التفاسير وأحالتها ميدانا فسيحا لمختلف النظريات المتضاربة، ونسيت في خضمّ خصومات أصحابها أن القرآن قد نزل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم للتي هي أقوم ولم ينزل ليكون حلبة صراع بين أتباع المدارس النحوية واللغوية والبلاغية .

وهذا ما دفعه إلى الاكتفاء في تفسيره بالضروري مما صح من كلام العرب في منثورهم ومنظومهم بما يوضّح المعنى ويجلّيه دون الحاجة إلى الخوض في التفريعات التي يتيه معها العقل وتضيع معها الهداية القرآنية وتذهب الجهود فيما لا فائدة منه، ثم ينتقل مباشرة إلى ما تتضمنه الآيات القرآنية من الإرشادات والتوجيهات والأحكام مما يتعلّق بشؤون الفرد والمجتمع وبناء النهضة، ويتبسّط فيها ويسهب في بيانها؛ لأنها هي الأصل الذي بنى عليه دروسه وفي ذلك يقول: " فقد عدنا إلى مجالس التذكير في دروس التفسير ، نقطف أزهارها ، ونجتبي ثمارها بيسر من الله تعالى وتيسير، على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد المعقول، مما جلاّهُ أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون رحمة الله عليهم أجمعين"[1].

ومن أمثلة ذلك نذكر تفسيره لقوله تعالى : ﭽ **وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ** ژ ژ **وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ** ک ک ک گ گ گ گ **ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا** ﴿١٢﴾ ﭼ الإسراء: ١٢ ، يقول : "جعلنا الليل والنهار : خلقناهما، ووضعناهما آيتين، وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة، فهما حادثان مُسَيَّران بتدبير وتقدير. والليل هو الوقت المظلم الذي يغشى جانبا من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل، والنهار هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها . فمحونا : المحو هو الإزالة : إزالة الكتابة من اللوح، وإزالة الآثار من الديار. فمحو آية الليل إزالة الضوء منها "[2] .

٤ ـ تدبر القرآن مع ربطه بالواقع :

شكّلت هذه القاعدة نقطة ارتكاز أساسية في منهج ابن باديس في تدبر القرآن الكريم ، بل كانت محورا من أهم المحاور التي أولاها كل عنايته واهتمامه لارتباطها بالهدف الكبير الذي يسعى إليه وهو تنزيل التوجيهات القرآنية على الواقع الجزائري لتتحوّل إلى سلوك عملي يصنع من الفرد والمجتمع كيانا جديدا يمتلئ قوة وحيوية وفعالية ، ويسير في الطريق الصحيح الذي يخلّصه من بؤسه وذلّه ومغلوبيته .

وهذا واضح جدا في تدبره لمختلف الآيات القرآنية التي لا يتعدّاها دون أن يربطها بالواقع الجزائري، وينبّه الأذهان إلى أن كل شؤون الناس الفردية والاجتماعية محتواة في كتاب الله، وأن المطلوب منهم هو الاتصال الحيّ المباشر به وتدبّره بعمق وتأنّ لاستمداد الزاد واستلهام الحلول للمشكلات التي تعترضهم، واستفتائه في أحوالهم وأعمالهم ليستقيموا على

---

[1] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٥٠

[2] – المصدر نفسه . ص ٥٨ ـ ٦٠

نهجه وتصلح به أمور حياتهم فلا تضطرب عليهم السّبل ولا تتقاذفهم أمواج المذاهب الوضعية ، ولا تستعبدهم قوى الطغيان العالمية وبين أيديهم المنهج الواضح ، لذلك فهو ينصح كل فرد أن يربط حياته بكل مكوّناتها بالقرآن الكريم، وأن يعكف على تدبّره فتنفتح له الأبواب فلا يضطر إلى طلب الحلول، ولا استجداء مفاتيح الأزمات من غيره :"أن نقرأ القرآن نتفهمه حتى تكون آياته على طرف ألسنتنا ومعانيه نصب أعيننا لنطبق آياته على أحوالنا وننزلها عليها كما كانت تنزّل على الأحوال والوقائع . فإذا حدث مرض القلب أو الاجتماع طلبنا دواءه في القرآن ، وإذا عرضت شبهة أو اعتراض طلبنا فيه الرد أو الإبطال ، فإذا نزلت نازلة طلبنا فيه حكمها . وهكذا نذهب في تطبيقه وتنزيله على الشؤون والأحوال "[1]. وقد طرحنا جملة من الأمثلة على ذلك في مبحث سابق.

وهو يلحّ على هذا الأمر إلحاحا شديدا، ويكرّره على المسامع كلما واتته الفرصة لذلك نظرا لخطورته وأثره البعيد في مسيرة النهضة التي يقودها : "إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهّرة علما وعملا فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال حياتنا الفردية والاجتماعية "[2]، ويهيب بكل من يستمع إلى دروسه أن يوطّن نفسه على أن يظل متردّدا دوما على مجالس القرآن الكريم ، عاكفا على تدبّره يصحح به عقيدته ويطهّر باطنه ويسارع إلى تنفيذه بشكل عمليّ حتى ينال من درجات الكمال ما يتناسب مع مجاهدته لنفسه، ويكون في ذاته قدوة لإخوانه المؤمنين :" فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك ، فيحضر مجالس العلم التي تذكّره بآيات الله، وأحاديث رسوله ما يصحّح عقيدته ويزكّي نفسه، ويُقَوّمَ عمله. وليطبّق ما يسمع على نفسه، وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا، حتى يبلغ إلى ما قُدّرَ له من كمال فيه، فيرجع وهو قد صار قدوة لغيره في حاله وسلوكه"[3].

خامسا : تدبر القرآن وأثره في نهضة الأمة:

لا يستطيع أحد أن يُقَيّم عمقَ آثار مشروع ابن باديس النهضوي ويفقه أبعاده الحضارية إذا لم يضعه في سياقه التاريخي الذي يمثّل الإطار الزماني والمكاني الذي تحرّك فيه هذا المجَدِّد العظيم ، وأنجز فيه أعماله الجليلة . ذلك أن تقدير الظروف الاستثنائية التي باشر فيها حركته الإصلاحية يعطينا الصورة الحقيقية لضخامة العمل الحضاري الذي تمّ على يديه، والذي طرح ثماره وحقّق هدفه الإستراتيجي البعيد الذي كان ضربا من المستحيل في أيامه، لا يخطر على بال أحد بَلْهَ أن يحلم به أو يتمنّاه . فبعد أقل من أربعة عقود من الزمن انتفض الشعب الذي ظن الاستعمار أنه مات موتا أبديا وانطوت صفحات وجوده ، وضرب أمثلة رائعة في الإيمان والصمود والتضحية ، واتخذ من شعار ابن باديس الذي رفعه عنوانا للنهضة الجزائرية الفتيّة "الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا " شعارا له ، ولم يتراجع ولم يستسلم للآلام والمآسي حتى افتكّ حريته، وطهّر أرضه من الغاصبين .

إن هذه الحركة المباركة التي انجلت عن نصر مبين كان أساسها المتين الذي ارتكزت عليه هو القرآن الكريم الذي اختار ابن باديس أن يكون هاديه في ظلمات الطريق ودياجيره: " فكل ما يحتاج إليه العباد لتحصيل السعادتين من

---

[1] – المصدر نفسه . ص ٢٩٥

[2] – ابن باديس حياته وآثاره . إعداد وتصنيف : عمار الطالبي . مج ١ .ج١ . ص ١٠٤

[3] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٣٩٦

عقائد الحق، وأخلاق الصدق، وأحكام العدل، ووجوه الإحسان، كل هذا فُصِّل في القرآن تفصيلا، كُلٌّ فُصّلَ على غاية البيان والإحكام، وهذا دعاء وترغيب للخلق أن يطلبوا ذلك كلّه من القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم في العلم والعمل، ويأخذوا منه ويهتدوا به، فهو الغاية التي ما وراءها غاية في الهدى والبيان"[١]. وقد دلّته نظرته السننية التي اكتسبها من طول النظر في القرآن الكريم وتدبّر آياته واستكناه أسراره والتعمّق فيما ورد فيه عن نشوء الأمم وأسباب نهوضها وانتكاسها وعوامل سقوطها أن المجتمع الجزائري لن ينهض إلا بالقرآن الكريم ، فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يصنع منه أمة فاعلة قوية تصنع التاريخ وتوجّه الأحداث؛ لأنه هو نفسه الذي صنع من عرب الجاهلية الغارقين في حمأة الشرك والجهل والضلال خير أمة أخرجت للناس : " الفضل أولا وأخيرا لله وكتابه الذي هدانا إلى فهمه والتفقّه في أسراره، والتأدب بآرائه. وإنّ القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يُكَوّن رجالا في الخلف لو أُحْسنَ فهمُهُ وتدبُّرُهُ وحُمِلَت الأنفس على منهاجه"[٢].

وقد صدق حدس ابن باديس ، وتخرّج على يديه رجال قرآنيون ونساء قرآنيات صنعوا الأمجاد وأعادوا للقرآن الكريم هيبته، وذكّروا الأعداء بقوته الربانية . ولعل في ذلك الحادث الغريب الذي هزّ السياسة الاستعمارية وأثار سخط صحافتها ما يؤكد ذلك. فأثناء احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، أراد وزير المستعمرات أن يقدم لضيوفه الأوروبيين الدليل القاطع على موت الإسلام في الجزائر وانتصاره عليه ، فأحضر مجموعة من الفتيات اللواتي درسن في المدارس الفرنسية منذ صغرهن ، وتطبّعن بالطباع الأوروبية ليظهرن بالزي الأوروبي ويتحدثن الفرنسية بطلاقة، وعندما رفعت الستارة عليهن كانت المفاجأة الصاعقة التي أذهلت الجميع، فقد ظهرت الفتيات في لباسهن التقليدي الجزائري (الحايك) الذي يغطي جميع أجسامهن ولا يظهر منهن إلا العينين ، فقال أحد الصحفيين : ماذا كنتم تفعلون طوال مائة عام في الجزائر إذن؟ فأجاب وزير المستعمرات (لاكوست) : وماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟ لقد أبت هؤلاء الفتيات أن يكُنَّ مصدر عار لشعبهن بعد أن أدركن أبعاد المؤامرة الاستعمارية التي ما بذلت لهن هذا التعليم إلا لاقتلاعهن من جذورهن .

وقد غطى مشروعه النهضوي جميع المواقع الحساسة في النفس والمجتمع ، وكانت لديه حاسة نافذة مكّنته من ترتيب سلم الأولويات ومراعاة احتياجات الواقع، فاستطاع أن يُحْدث التغيير المنشود فيها ببراعة . ويمكننا تلمّس آثار حركته التي استند فيها إلى القرآن الكريم واضحة جليّة في الميادين التالية :

١ – تدبر القرآن وصياغة العقيدة :

عمل ابن باديس على تطهير العقيدة وتنقيتها من البدع والخرافات وتصفيتها من الشوائب وتفنيد الشبهات المثارة حولها لأن فساد العقيدة : "ينجم عنه جمود في النظر وفساد في الإدراك، وتقليد أعمى للآباء، واعتقاد في الباطل وشك في الحق"[٣]، وصياغة العقل الجزائري صياغة جديدة تؤهله للاحتكاك المباشر بالقرآن الكريم والقدرة على تدبّره تدبّرا

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ص ٧٩

[٢] – الشهاب . ج ٤ . مج ١٤ . ١٩٣٨ م . ص ٢٩٠ . ٢٩١

[٣] – حسن عبد الرحمن سلوادي . عبد الحميد بن باديس مفسرا . ص ١٣٤

سليما: "قلوبنا معرّضة لخطرات الوسواس بل للأوهام والشكوك، فالذي يُثبّتُها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن الكريم "[١]، كما عمل على تخليصه من الضغط الذي فرضته عليه التراكمات التراثية ورواسب الأفكار الضالة، والاعتقادات الخاطئة والممارسات الشاذة المنافية لروح الإسلام، وتعيد لهذه العقيدة تألقها وفعاليتها الاجتماعية التي تعطّلت، حيث بنى أمره على أن : " خير طريقة في تعليم العقائد في التوحيد هي طريقة الشارع الحكيم المبنية على مراعاة الفطَر الإنسانية السليمة ، البعيدة عن الأوضاع والتقنينات البشرية التي تعب الأوائل في وضعها وأتعبوا الناس في فهمها"[٢]؛لأن في القرآن من الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة ما يرضي العقل ويطمئن النفس ، وهو قادر بواقعيته ووضوح أدلته على التأثير في العقول والنفوس.

لذلك أعرض . في دروسه . إعراضا تاما عن المناهج الكلامية التي طغت على طريقة تدريس العقائد في المعاهد الإسلامية وعاد بالمسلمين إلى النبع الأول الذي اغترف منه السلف عقيدته قبل أن تشوبها شوائب الفلسفة والدراسات الكلامية التجريدية المغرقة في الغموض ، وكان دليله في ذلك أن في القرآن الكريم من الأدلّة ما يكفي لبناء عقيدة صحيحة متينة، والاستعانة في تحقيق هذا المطلب بغيره من آراء البشر واجتهاداتهم هجرٌ لكتاب الله ونبذ لهدايته، يقول: " أدلة العقائد مبسوطة في القرآن الكريم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام وأصولها مذكورة كلها فيه ... فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن الكريم"[٣]. وفي موضع آخر يقول : " أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه"[٤].

ويذكر رفيقه في الإصلاح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أن هذا الأمر كان واضحا في ذهن ابن باديس وضوحا تاما منذ أن كان طالبا، وقد عزم . في هذه السن المبكرة . أن يكون أسلوبه في تعليم التلاميذ مخالفا لما تلقّاه هو في جامع الزيتونة فكان له ما أراد : " والإمام رضي الله عنه كان منذ طلبه للعلم بتونس، قبل ذلك . وهو في مقتبل الشباب . يُنْكر بذوقه ما كان يبني عليه مشايخه من تربية تلامذتهم على طريقة المتكلمين في العقائد الإسلامية ، ويتمنى أن يُخْرجهم على الطريقة القرآنية السلفية في العقائد يوم يصبح معلّما. وقد بَلَّغَهُ الله أمنيته ، فأخرج للأمة الجزائرية أجيالا على هذه الطريقة السلفية قاموا بحمل الأمانة من بعده، ووراءهم أجيال من العوامّ الذين سَعدوا بحضور دروسه ومجالسه العلمية. وقد تربّت هذه الأجيال على هداية القرآن فهجرت ضلال العقائد وبدع العبادات، فطهّرت نفوسها من بقايا الجاهلية التي هي من

---

[١] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ١٥٨

[٢] – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . تحقيق : محمد الصالح رمضان . دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع . الشارقة . ط ١ . ١٤١٦ هـ. ١٩٩٥ م . ص ١٠

[٣] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ١٧٨

[٤] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ص ١٥٨

آثار الطرائق القديمة في التعليم، وقضت الطريقة القرآنية على العادات والتقاليد المستحكمة في النفوس وأتت على سلطانها"(١).

وفيما يلي نماذج مختصرة من كتابه "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية" توضّح منهجه في تناول العقيدة، وهي ـ كما يصفها الإبراهيمي ـ : " عقيدة مثلى يتعلمها الطالب فيأتي منه مسلم سلفي ، موحّد لربّه بدلائل القرآن، كأحسن ما يكون المسلم النقيّ، ويستدلّ على ما يعتقد في ربّه بآية من كلام ربّه لا بقول السنوسي(٢) في عقيدته الصغرى(أما برهان وجوده تعالى فحدوث العالم)"(٣) :

ـ في بيان معنى الإسلام : " يجيء لفظ الإسلام في لسان الشرع مرادا به الدين كله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من العقائد والأعمال والأحكام لقوله تعالى:{إن الدين عند الله الإسلام} وقوله تعالى:{ورضيت لكم الإسلام دينا}. والإسلام الذي سمّيَ به الدين معناه الانقياد لله تعالى ظاهرا وباطنا والإخلاص له فيهما لقوله تعالى :{ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا} ولقوله:{بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

ويجيء الإسلام في لسان الشرع أيضا بمعنى الأعمال الظاهرة الدّالة بحسب الظاهر على الانقياد والإذعان، المبنية على التصديق التام لما جاء في حديث سؤال جبريل عليه السلام قال:(يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحجّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلا، قال جبريل: صدقت) . ويجيء الإسلام بمعنى الاستسلام في الظاهر دون إيمان في القلب، وهذا لا ينفع صاحبه لقوله تعالى: چ ۞ **قَالَتِ** ک ک ک ک گ گ گ گ گ **أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ** چ الحجرات: ١٤

ـ عقيدة الإيمان بالله : "هو الموجود الحقّ لذاته، الذي لا يقبل وجوده العدم، فهو القديم الذي لا بداية لوجوده، وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده لقوله تعالى:{أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض} وقوله تعالى:{هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}. وهو الموجود الذي سبق وجودُهُ كلَّ وجود، فكان تعالى وحده ولا شيء معه، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته لقوله تعالى: {هو الأول}، {الذي خلق السموات والأرض وما بينهما}، {وخلق كل شيء فقدّره تقديرا}، {خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش}. وهو الغني بذاته عن جميع الموجودات، وهي المفتقرة كلُّها ـ ابتداءً ودوما ـ إليه، لقوله تعالى: چ ۞ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ**

---

[١] – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ـ عبد الحميد بن باديس ـ تقديم : محمد البشير الإبراهيمي ـ ص ١٥

[٢] – محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (٨٣٢ ـ ٨٩٥ هـ) كبير علماء تلمسان وزهادها في عصره، كان مفسرا محدثا ومتبحّرا في علوم التوحيد، ذا نزعة صوفية ـ ترك مؤلفات عديدة في مختلف العلوم أشهرها على الإطلاق مؤلفاته في علم التوحيد : العقيدة الكبرى ، والعقيدة الوسطى ، والعقيدة الصغرى، وشرح أم البراهين ـ (راجع ترجمته في : معجم أعلام الجزائر ـ عادل نويهض ـ ص ١٨٠) .

[٣] – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ـ عبد الحميد بن باديس ـ ص ١٧

ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ ﴾ فاطر: ١٥ - ١٧ "[1]

٢ – تدبر القرآن وتجديد الفقه الإسلامي:

دعا ابن باديس إلى إحياء الفقه الإسلامي وتحريك العقل الاجتهادي وتجاوز القراءات المذهبية التي تأسر النص المعصوم ضمن منظورها الفقهي ولا تعترف بوجهات النظر الأخرى ، وطرح الاجتهادات البشرية التي تراكمت عبر العصور، واكتست طابع القداسة حتى كادت تحل محلّ الكتاب والسنة، وانتقد بشدّة المقلّدين الجامدين الذين أغلقوا باب الاجتهاد في وجوه العلماء، وأرغموهم على حصر جهودهم في شرح المتون والمختصرات الفقهية، وقطعوا الصلة التي تربطهم بالقرآن الكريم : "أدخلت على مذهب أهل العلم بدعة التقليد العام الجامد التي أماتت الأفكار وحالت بين طلاب العلم معين السنة والكتاب ، بل صيّرتهما ـ في زعم قوم ـ غير محتاج إليهما من نهاية القرن الرابع إلى قيام الساعة، لا في فقه، ولا استنباط، ولا تشريع ، استغناءً عنهما ـ زعموا ـ بكتب الفروع من المتون والمختصرات، فأعرض الطلاب عن التفقّه في الكتاب والسنة وكتب الأئمة، وصارت معانيها الظاهرة بَلَه الخفية مجهولة حتى عند كثير من المتصدرين"[2].

وعمل على الرجوع المباشر إلى القرآن الكريم والاحتكام إليه من أجل إحداث عملية إخصاب بين النص الشرعي والواقع المعيش من خلال التدبر الأمثل للنص القرآني الذي يفضي إلى اكتشاف إجابات جديدة للتحديات المعاصرة عن طريق حركة الاجتهاد والتجديد ، وكان يريد لطلبته أن يكونوا : " فقهاء ينظرون إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة ، لا من عين المذاهب الضيقة"[3].

وأكّد في مناسبات عديدة أن القرآن الكريم قد بيّن بوضوح تام مسائل الحلال والحرام وأتبع ذلك ببيان حكَمها وفوائدها بأسلوبه المعجز وبيانه الرائع الذي يقنع العقل ويملأ الوجدان ، غير أن المتأخرين عدلوا عن طرح هذه الأحكام للمستفتين واستبدلوها بأحكام المذاهب الفقهية التي تُلْقى على السائلين جافة مقطوعة من أصولها لا أثر فيها لطراوة القرآن الكريم وحسن وقعه على النفوس وشدة تأثيره فيها ، فكان ذلك سببا آخر من أسباب ابتعاد المسلمين عن كتاب ربهم وانقطاع صلتهم الحيّة به : " بيّن القرآن أصول الأحكام وأمهات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام فهجرناها واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجرّدة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، محجّبة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تَفْنَى الأعمار قبل الوصول إليها "[4].

وحتّى تتجاوز حركة النهضة الجزائرية التي كان يشرف عليها من موقع القائد هذا الخلل وتعيد العلاقة الحميمة بين المسلم والقرآن الكريم ، نصح ابن باديس جميع من يتولّى الإفتاء أن يربط بين الفتوى وبين الآيات القرآنية التي تؤيدها حتى يقع في نفس المستفتي أن هذا الأمر صادر مباشرة من عند الله وأنه يستدعي منه الإذعان والخشوع والتنفيذ وهذا

---

[1] – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . ص ٥٥ . ٥٦

[2] – آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٥ . ص ٣٨

[3] – محمد مقبول حسين . "فقه الإمام عبد الحميد بن باديس " . مجلة الموافقات . ع٦ . س٦ . ١٤١٨ هـ . ١٩٩٨ م . ص ٤٨٦

[4] – ابن باديس حياته وآثاره . إعداد وتصنيف : عمار الطالبي . ج ٣ . ص ٢١٩

طريق آخر من طرق تقريب كتاب الله إلى عامة أفراد الشعب ليُقْبلوا على تدبّره وتفهّمه واستجلاء أسراره وغوامضه ، وفي ذلك يقول : " ومما ينبغي لأهل العلم أيضا إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ، ويذيقوهم حلاوته ، ويعرفوهم منزلته ، ويجعلوه منهم دائما على ذكر ، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب ، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلب وأثر في النفس ، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إذا كنتم للخير تريدون "[١] .

٣ ـ تدبر القرآن وترقية الأخلاق الإسلامية :

ومثلما عمل ابن باديس على تطهير عقيدة الجزائريين بالقرآن الكريم ، وتحرير الفقه من أسر المتون والفروع وردّه إلى المنبع القرآني ، عالج الآفات النفسية والاجتماعية أيضا بالقرآن الكريم ، وتناولها من هذا الجانب ، فأرشد طلبته والجماهير الغفيرة التي كانت تحضر دروسه إلى ما يعتري أخلاق الأمة من نقص وخلل ، وما يشيع فيها من مساوئ وأثر ذلك كلّه في الفرد والمجتمع وطرح عليهم البديل الإيجابي من القرآن الكريم الذي يتضمّن بين دفّتيه موسوعة رائعة من الأخلاق الفاضلة والخلال الحميدة : " بيّن القرآن الكريم مكارم الأخلاق ومنافعها ، ومساوئ الأخلاق ومضارها ، وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلّي بتلك مما يحصل عليه الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة "[٢]، وهو يقرّر أنه لا شفاء للأمراض التي تصيب العقائد والأخلاق فتقتل الفاعلية والإيجابية في الأفراد والمجتمعات إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم : " ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضا"[٣].

وابن باديس يشدّد على أهمية الأخلاق وخطورتها في صلاح الفرد والمجتمع؛ لأنها هي الوسيلة الوحيدة التي تمكّن الإنسان من الارتقاء في سلّم الكمالات وتعطيه البعد الإنساني الراقي الذي يليق بخليفة الله في أرضه، ولأنها الوسيلة المثلى لتربية الإرادة القوية فيه مما يمكّنه من امتلاك زمام نفسه والتصرّف بحكمة ورحمة:" النفس الكريمة هي التي كملت بمحاسن الأخلاق التي تتكون منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها"[٤]

. وينبّه في دروسه وتوجيهاته إلى ضرورة الجمع بين العلم والأخلاق فكلّما تنوّر عقل الإنسان بالعلم يجب أن تتزكّى نفسه . في الوقت ذاته . بالأخلاق الحميدة ليكون على بصيرة من أمره ، وإلا فما قيمة العلم إذا لم يزد في إنسانية الإنسان : "العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان"[٥].

وفي هذا الإطار، حارب ابن باديس الظلم والكبر والخيانة والكذب والغش والأنانية والبخل والزنا وشرب الخمر والقمار والبطالة والتواكل والكسل واليأس وكل الرذائل التي كانت متفشية في المجتمع ، ودعا إلى الصدق والإخلاص وبر الوالدين والإيثار والأخوة والمحبة والتعاون والتراحم والتسامح والتواضع والصبر والكرم ونكران الذات والعمل والتفاؤل

---

[١] – المصدر نفسه . ج ١ . ص ٢٧٢

[٢] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٨٢

[٣] – المصدر نفسه . ص ٢٢٧

[٤] – تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. ص ١٩٩

[٥] – المصدر نفسه . ص ١٤٩

مدعّما دعوته إلى هذه الفضائل بما احتواه القرآن الكريم من آيات تُعْلي من شأنها وتنوّه بأثرها الطيّب في الحياة وحسن جزاء صاحبها في الآخرة .

فهذه المحاور الأساسية تختزل في جوهرها المكوّنات الرئيسية للشخصية الإنسانية التي عكف ابن باديس في مشروعه النهضوي على تنميتها وتطويرها وتأهيلها وتزويدها بالعلم النافع الذي يخلّصها من سلبيتها القاتلة، ويطهّر باطنها من القابلية للاستعمار، ويشعل في داخلها جذوة المعرفة ويدفعها إلى اقتحام الحياة وخوض معاركها في ثقة وقوة ، وقد كان له ما أراد ، وأثمر جهاده الطويل ثمرات يانعة كانت خيرا وبركة على الجزائر التي ظن كثير من المسلمين آنذاك أنها أندلس ثانية لما رأوا فيها من مظاهر المسخ الحضاري والطغيان الاستعماري الذي قتل إنسانية الإنسان واغتال ذاكرته ، ويسجّل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أثر ابن باديس في جموع الشعب الجزائري ونجاحه الفائق في ربطهم بالقرآن الكريم ربطا عميقا فيقول : " فأصبح العاميّ لا يقبل من العَالم كلاما في الدين إلا إذا استدلّ عليه بآية قرآنية. وأصبح العاميّ إذا سمع الاستدلال بالقرآن أو الحديث اهتزّ وشاعت في شمائله علامة الاقتناع والقبول، وهذه أمارة دالّةٌ على عودة سلطان القرآن على النفوس يُرْجَى منها كلّ خير"[١].

كما يتحدث في موضع آخر عن حال الأمة قبل حركة ابن باديس وبعدها مثمّنا حجم التغيير الذي حصل ووضع الشعب على خط السير الصحيح الذي يفضي به إلى الفلاح بفضل القرآن الكريم الذي بثّ فيه روحا جديدة وأيقظ إنسانيته المسلوبة، متفائلا بما ستؤول إليه هذه الحركة المباركة : " قد كانت هذه الأمة معرضة عن القرآن مشغولة عنه بما لا يفيد، معتقدة فيه العقائد السخيفة، مستغنية عن فهمه بحفظه مع تقصيرها في أداء لفظه، مستعيضة عن تلاوته بتلاوة الأوراد والأذكار، وعن دراسته بدراسة كتب جافة من وضع المخلوق لا تبعث في النفس نشاطا ولا تنشر في القلوب حياة، ولا تغرس في الأفئدة فضيلة، ولا تقتلع منها رذيلة، ولا تشرق على القلوب المظلمة بنور، ولكنها بدأت اليوم ترجع إلى القرآن وتستجلي أنوار الهداية وأسرار الكائنات من آياته، وتأخذ الحياة قوية من تعاليمه، وكأنها برجوعها إلى القرآن تجدد نفسها وتستأنف في الحياة تاريخها، وعسى أن تنتهي من هذه الوجهة الجديدة إلى غايتها، فتنتهي إلى السعادة والخير"[٢].

وقد صدق حدس الشيخ ، فبعد أن استنارت النفوس بالقرآن الكريم ، وامتلأت علما وفقها، وأبصرت مكانها في الدنيا، وأطلّت على تاريخها المجيد، وعرفت عدوّها عن كثب ، وآمنت بحقها في الوجود، ورفضت الذل والاستعباد ، ترجمت هذه المعاني كلها إلى ثورة عارمة اشتعل أوارها عام ١٩٥٤م لسبع سنين متتاليات ولم تنطفئ نيرانها المتأججة إلا عام ١٩٦٢م بعد أن تخلّص الشعب من الاحتلال البغيض وأمسك زمام أمره بيده . بل إن الشيخ أحمد حَمّاني . أحد تلامذة الشيخ ابن باديس . يؤكد أن جهاد ابن باديس قد أعطى نتائجه بعد خمس سنوات فقط من وفاته : " وقد تحقّق

---

[١] – العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . تقديم : محمد البشير الإبراهيمي . ص ١٦

[٢] – آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . ج ٤ . ص ٢٨٤

من بعده كل ما أمله، ونشبت الثورة بعد خمس سنوات فقط من وفاته عام ١٩٤٥م، فاستشهد فيها ٤٥ ألفا ، ثم عادت سنة ١٩٥٤ فتمكنت من طرد الغاصبين والحمد لله رب العالمين"(١)

وثورة ٨ مايو ١٩٤٥ التي استشهد فيها أكثر من ٤٥ ألفا من الجزائريين في ظرف أيام قلائل كانت فعلا مظهرا بارزا من مظاهر التغيير الجذري الذي طرأ على الكيان الجزائري بفعل رياح النهضة التي أيقظته وزرعت فيه روحا جديدة، فقد كانت مبنيّة على مطالبة فرنسا بالوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها أثناء الحرب العالمية الثانية بمنح الاستقلال للجزائر إذا حارب أبناؤها إلى جانب الجيوش الفرنسية ، لكنها خانت العهد فوجدت أمامها شعبا غير الذي كانت تعرف، حيث سبق لها وإن ساقت إلى أتّون الحرب العالمية الأولى آلافا من الشباب الجزائري الذين لقوا حتفهم دفاعا عن أرضها ولم يحاسبها أحد، وظنّت أن الأمور لا تزال على ما هي عليه ، غير أن الأحداث أثبتت لها عكس ذلك ، فكانت المجازر الوحشية التي ارتكبتها لإسكات هذه المطالب هي أول مسمار دقّته في نعشها .

ونحسب أن تعليم الشعب الجزائري وتكوينه وتوعيته بماضيه وانتمائه الحضاري وتحريره من قيود الأمية والجهل وتخليصه من أسر الخرافات والضلالات واقتلاع جذور الخوف ومشاعر الذل والاستعباد من نفسه وتهيئته لصياغة مستقبله وتعبئته ليصنع مصيره بنفسه ويستردّ حقه في أرضه وخيراته في ضوء التربية القرآنية هو أجلّ وأسمى عمل حضاري قام به ابن باديس مستندا إلى فقه عميق في تدبر القرآن الكريم الذي كان يقول عنه :" نتناول القرآن العظيم دواء من عند ربنا، شفاءً لأمراض عقولنا وأمراض نفوسنا، وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه بتدبّر آياته وتفهّم إشاراته ووجوه دلالاته"(٢) .

ويكفيه عظمةً أنه استطاع بتوفيق من الله أن يحدّد بدقّة إستراتيجيته الحضارية فيرسم ميدان المعركة، ويحسم قضيّة المنهج ، ويتصوّر الأهداف البعيدة والقريبة ، ويسخّر لها الوسائل والأساليب على الرغم من شحّ الإمكانات وإكراهات الواقع ، وأن يترك بصماته العميقة في التاريخ في وقت فشل فيه كثير من أمثاله ممن توفّرت لهم الظروف المواتية والإمكانات الواسعة، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الشعب يدين له بالشيء الكثير ولن يوفّيه حقه إلا إذا عاد إلى اتباع السبيل التي رسمها له .

الخاتمة و النتائج:

وفي ختام هذا البحث نخلص إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان مجدّدا من الطراز الأعلى من المجدّدين الذين بشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله يبتعثهم على رأس كل مائة عام ليجدّدوا للأمة دينها بعد أن تبلى حباله وتكاد ريحه تذهب . فقد آمن إيمانا صادقا لا يشوبه شك أن القرآن الكريم هو العروة الوثقى التي تنقذ المسلمين من براثن الجهل والتخلف والطغيان وتكالب الأمم عليهم ، وهو الحبل المتين الذي يشدّهم إلى الأعلى وينتشلهم من

---

[١] – ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر . أحمد حماني . "تفسير ابن باديس ومناهجه في التأويل" . ص ٢٥١

٢ _ تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٢٣٢

وهاد الذل والاستضعاف والمغلوبية الحضارية التي سحقتهم حتى أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الاندثار. عن طريق إحداث علاقة جديدة تقوم على التدبر الأمثل للنص القرآني .

ولم يبق هذا الإيمان الراسخ قابعا في أعماقه بل أخرجه إلى الواقع في دفقات حارة من الطاقة الإيمانية التي ترجمها إلى برنامج عمل استوعب به حيثيات الزمان والمكان فحدثت المعجزة واستيقظت الأمة النائمة ونشطت من عقالها واستجابت لداعي الحق ونفضت عنها غبار العجز والكسل وراحت تبحث عن نفسها في كتاب ربها ، ثم ما لبثت أن استوت على سوقها واكتمل وعيها واستعادت فعاليتها بفضل إمداد النور القرآني التي كان الشيخ ابن باديس يشحن بها أرواحها وينير بها عقولها .

هذه التجربة الرائدة التي كانت ناجحة بكل المقاييس دليل حيٌّ على قدرة القرآن الكريم . إذا وجد من يتدبّره حق تدبّره ويفهم المراد الإلهي منه فهما موفّقًا ومتناغما مع سنن الله في الأنفس والآفاق . على بعث الحياة في النفوس الراكدة والمجتمعات الجامدة ، وإحداث التغيير الإيجابي الذي يغيّر مجرى التاريخ ويصنع الحدث . فقد لبث الشيخ ابن باديس طيلة ربع قرن من الزمان يعايش القرآن الكريم معايشة يومية ، يتدبّره، ويتأمّل آياته، يسائلها ويغوص في ثناياها ثم يعرض ما يفتح الله عليه من الأنوار على الشعب المغلوب على أمره ويبني في جوفه الخرب كل يوم لبنة جديدة ، ويفتح أعين الأطفال على نوره حتى لا تدركهم عوامل الذلّ والقهر التي سحقت آباءهم فأردتهم صرعى تحت أقدام الطغاة الظالمين ، وهو على ثقة تامة بأن هذا الهدى الربّاني سيؤتي أكله يوما سائغا طيبا . وكان يتابع بحاسته الإيمانية هذا التغيير على مرّ الأيام ، وعندما تأكّد من أن غرسه قد مدّ جذوره عميقا في الأرض ، وأرسل فروعه عالية في السماء واجه العدوّ بكل ثقة قائلا : " إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود ومعيّن هو الوطن الجزائري بحدوده المعروفة"[1] ، وأرسل نشيده الخالد الذي زعزع أركان الإدارة الاستعمارية قبل أن تزعزعها الثورة التحريرية :

شَعْبُ الجزائرِ مُسْلِمٌ ----- وَإِلىَ العُروبةِ يَنتَسِــبْ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ ----- أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَــذبْ
أَوْ رَامَ إدمَاجًا لَــهُ ----- رَامَ المُحَال من الطَّلَــبْ
يَا نَشءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَــا ----- وَبِكَ الصَّباحُ قَدِ اقْتَـرَبْ
خُذْ لِلحَياةِ سِلاَحَـها ----- وَخُضِ الخُطُوبَ وَلاَ تَهَـبْ

وقد انتهينا إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي :

---

[1] – **آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . ج ٥ . ص ٢٩٤**

١ ـ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يؤمن إيمانا مطلقا أن القرآن الكريم هو الأساس الوحيد الذي يمكن أن تُبْنَى عليه النهضة في الجزائر، ولا يمكن لأيّ حركة تغييرية أن تنجح وتبلغ أهدافها في البيئة الجزائرية إذا لم تستند إلى القرآن كنقطة ارتكاز في انطلاقتها من خلال الفهم العميق للنص المعصوم وتنزيله على أرض الواقع تنزيلا سليما .

٢ . أنه كان يدرك إدراكا واعيا أن علاقة المسلمين بالقرآن يعتريها كثير من الخلل والقصور، وحتى يكون القرآن صالحا لبناء النهضة يجب أن نعكف عليه نتدبّره ونتفهّم معانيه ونستجلي مقاصده ونكشف غوامضه ونبحث عن أنفسنا فيه وعن أسباب سقوطنا في ثناياه وعن علاج أسقامنا وأمراضنا الحضارية عنده. وهو لا يفتأ يؤكّد على ضرورة فهم القرآن وتدبّره في كل المناسبات ، وعندما نتأمل تفسيره نعثر على كثير من الدقائق والأسرار والاستنباطات الذكية واللمحات واللطائف التي تدلّ على أن الرجل قد غاص في أعماق الآيات القرآنية مرارا وتكرارا وفي كل مرة يفتح الله عليه بابا من أبواب الإلهام تنبئ عن عقل جبار .

٣ . أنه بنى استراتيجيته في تدبّر القرآن ليكون سبيله للتغيير والنهوض على طريقة متميّزة ومستحدثة تفتقت عنها عبقريته فسلك فيها أسلوبا يختلف عن طرائق كثير من المحدثين والمعاصرين في التعامل مع النص القرآني تقوم على تفسيره تدريسا في مجالس يومية والتوجّه به بشكل مباشر وخاص إلى النخبة والعامة والطلبة ليكون منهج حياة يسلكونه ، وليس تأليفا يضاف إلى رفوف المكتبات .

٤ ـ أنه استثمر عامل الزمن لتدبّر القرآن استثمارا ذكيا جدا ، حيث أتاح له تنجيمه وتوزيع دروسه على مدار خمس وعشرين سنة فرصة ثمينة لمعايشته معايشة يومية يستفيد خلالها من الظروف المحيطة وردود أفعال الطلبة والجمهور ومستجدات الواقع فتتعمَّق صلته بالنصّ القرآني وتنفتح له أبواب جديدة في تدبّره واستكشاف أسراره وخباياه.

٥ ـ أنّ تدبّر القرآن عنده مرتبط بهدف أساسي هو ترجمة تعاليمه وأوامره ونواهيه إلى سلوك حيّ . فقد كان يلحّ في كل مجلس من مجالسه على أن كلام ربّ العالمين ليس أفكارا مجرّدة نضيفها إلى ثقافتنا العقلية وإنما هي دستور عمل ومنهج حياة يجب أن تُرَى آثاره في واقع الإنسان ليتحقق وعد الله بالنصر ، فعلى كلّ مستمع أن يتلقّى لينفذ ، وهو لا يبخل على مستمعيه في كل مرة بالعبرة والعظة والحكمة التي يستنتجها من الآية أو الآيات ليسهّل عليهم سبل التطبيق العملي.

٦ . أن ابن باديس قد نجح نجاحا باهرا في توصيل المعاني القرآنية بكل عمقها وصفائها وبساطتها إلى جميع شرائح المجتمع وربطهم بكتاب الله ربطَ محبّة وشغف، وبثّ فيهم روح القرآن الشفافة بعد أن تجاوز في دروسه كل القراءات المذهبية التي عرفتها القرون السالفة وكانت سببا في التعصب المذهبي والجمود العقلي ، وتجاوز معها كل تعقيدات العلوم الآلية التي امتلأت بها بعض كتب التفاسير حتى صرفت الناس عن الاهتداء بالقرآن وشغلتهم بالبحث في اختلافات اللغويين والبلاغيين وقدّم النص القرآني للجماهير دون وسائط بشرية كما كان يقدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فيجدون فيه الخير كلّه والفضل كلّه .

٧ . أن الإنسان الجزائري قد تجاوب مع المشروع النهضوي الباديسي تجاوبا عميقا ، واندمج في حركته الإصلاحية بكل جوارحه ، وشارك فيها مشاركة حيّة، وكانت توجيهات ابن باديس تجد منه استجابة واسعة، بفضل إستراتيجية الشيخ

المجدّد الذي كان على دراية تامة بنفسية الشعب الذي يتعامل معه، فساقه إلى طريق النهضة والإصلاح من أقرب السبل إلى نفسه وهو القرآن الكريم .

٨ ـ أن تجربة ابن باديس الإصلاحية قد اتسمت بالشمول وحاول صاحبها ما وسعه الجهد أن يسدّ كل الثغرات في المجتمع وأن يغطي بعلمه وعمله جميع القطاعات الحيوية فيه حتى ينهض نهضة متكاملة ، وتتكوّن لديه نظرة كليّة لواقعه وفق تصوّر القرآن الكريم لها ، فلا يحتاج لأن يستفتي غيره في أيّ شأن من شؤونه ، وعليه فقد شمل ابن باديس بإستراتيجيته النهضوية الجوانب الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وبصّر الناس بما اشتمل عليه القرآن من أحكام صائبة تضبط هذه المجالات ليسيروا فيها على هدى.

قائمة المصادر والمراجع :

أ . الكتب

١ . آثار الإمام عبد الحميد بن باديس . دار البعث . قسنطينة . الجزائر. ط ١ . ١٤٠٥ هـ. ١٩٨٤ م

٢ . آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ١ . ١٩٧٨ م

٣ . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي . دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط ١ . ١٩٩٧ م

٤ . الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية . محمود قاسم . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٨

٥ . ابن باديس حياته وآثاره . إعداد وتصنيف : عمار الطالبي .الشركة الجزائرية . الجزائر . ط ٣ .١٤١٧ هـ. ١٩٩٧ م

٦ . ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير . محمد بهي الدين سالم . دار الشروق . ط ١ . ١٤٢٠ هـ . ١٩٩٩ م

٧ . ابن باديس وعروبة الجزائر . محمد الميلي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ٢ . ١٩٧٣ م

٨ . تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . جمع وترتيب : توفيق محمد شاهين ، ومحمد الصالح رمضان . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . دمشق . ط ٣ . ١٣٩٩ هـ. ١٩٧٩ م

٩ . تفسير التحرير والتنوير . محمد الطاهر بن عاشور . دار سحنون للنشر والتوزيع . تونس . ١٩٩٧ م

١٠ . تفسير النسفي . أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي . دار الكتاب العربي . بيروت

١١ . تفسير القرآن العظيم . إسماعيل بن عمر بن كثير . تحقيق : سامي بن محمد السلامة . دار طيبة للنشر والتوزيع . ط ٢ . ١٤٢٠ هـ. ١٩٩٩ م

١٢ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . عبد الرحمن السعدي . مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت . ٢٠٠٢م

١٣ . تدبر القرآن . سلمان السنيدي. مجلة البيان . الرياض . ط ٢ . ١٤٢٣ هـ. ٢٠٠٢ م

١٤ . تجربة في الإصلاح . صلاح الدين الجورشي . تونس . ط ١

١٥ . الجزائر الثائرة . كوليت وفرانسيس جانسون . ترجمة : محمد علوي الشريف وآخرون . دار الهلال . القاهرة . ١٩٥٧

١٦ . حياة كفاح . أحمد توفيق المدني . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ١٩٧٧ م

١٧ . شروط النهضة. مالك بن نبي . ترجمة : عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط٣، دار الفكر، ١٩٦٩م

١٨ . الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر . رابح تركي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ٣ . ١٩٨١

١٩ . العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . تحقيق : محمد الصالح رمضان . دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع . الشارقة . ط ١ . ١٤١٦ هـ. ١٩٩٥ م

٢٠ . عبد الحميد بن باديس مفسرا . حسن عبد الرحمن سلوادي . المؤسسة الوطنية للكتاب . ١٩٨٤

٢١ . فلسفة الإمام ابن باديس في الإصلاح والتجديد . بركات محمد مراد . الصدر لخدمات الطباعة . القاهرة . ط ١ . ١٩٩٢ م

٢٢ .كتاب الجزائر . أحمد توفيق المدني . دار الكتاب الجزائري . ط٢ . ١٩٦٣

٢٣ . مجموع الفتاوى . تقي الدين بن تيمية . تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم . مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . المملكة العربية السعودية .١٤١٦ هـ. ١٩٩٥ م

٢٤ . مذكرات . محمد خير الدين . مطبعة دحلب . الجزائر . ١٩٨٥ م

٢٥ . مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة . ابن القيّم . دار ابن عفان . الخبر . المملكة العربية السعودية . ط١ . ١٤١٦ هـ

٢٦ . ميلاد مجتمع . مالك بن نبي .دار الفكر . دمشق

٢٧ . من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية . أحمد طالب الإبراهيمي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر . ط ١

٢٨ . من ذكرياتي عن الإمامين الرئيسين ابن باديس والإبراهيمي . باعزيز بن عمر . منشورات الحبر . الجزائر . ٢٠٠٦

٢٩ . معجم أعلام الجزائر. عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة. بيروت . ط ٢. ١٤٠٠ هـ. ١٩٨٠ م

٣٠ . ملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر. كتاب الأصالة. دار البعث . قسنطينة. الجزائر . ١٩٨٣ م

ب . الدوريات

٣١ . مجلة الأصالة . ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ. ١٩٧٧ م . س ٦ . ع ٤٤. الجزائر

٣٢ . مجلة الثقافة . ع ٢١ . ١٩٧٤ . الجزائر

٣٣ . مجلة الثقافة . مايو . يونيو ١٩٨٥ . ع ٨٧ . الجزائر

٣٤ . مجلة الشهاب . ج ٨ . مج ١٢ . ١٩٣٧. قسنطينة . الجزائر

٣٥ . مجلة الشهاب . ج ٨ . مج ١٣ . ١٩٣٧

٣٦ . مجلة الشهاب. . ج ٤. مج ١٤. ١٩٣٨ م

٣٧ . جريدة الصراط . ع ٤ . س ١ . ١٩ جمادى الثانية ١٣٥٢هـ. أكتوبر ١٩٣٣ م . الجزائر

٣٨ . مجلة الموافقات . ع٦. س٦ . ١٤١٨ هـ. ١٩٩٨ م . كلية أصول الدين . الجزائر